أرضُ الشّوك

الطبعة الأولى
1440 هـ
2019 م

اسم الكتاب: أرضُ الشّوك
التأليف: وصال تقة
موضوع الكتاب: مجموعة قصصية
المراجعة اللغوية: عبدالقادر أمين
عدد الصفحات: 96 صفحة
عدد الملازم: 6 ملازم
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/2434
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 633 - 6

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

أرضُ الشّوك

مجموعة قصصية

وصال تقة

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

إلى كلّ مَن تجرّعت الصَّبر والصِّبر والصُّبار وما زالت..

إلى كلّ مَن زرعت الأشواق وحصدت الأشواك

فأعلنتها "لا" وزالت..

إلى صديقتي التي مازالت "حيّة تنتظر"..

إلى صديقتي التي عبرتْ دروب اليقين..

إليك أمّي.. يا مَن علمتني أنّ الصبر لا ينافي الإباء..

وأنّ كرم العيش ألّا أعيش بمحاذاة الحياة..

عالقة بشباك عنكبوت، لا أحيا فيه ولا أموت..

إليكنّ زهراتي.

أسأل الله لكنّ حظًّا خيرًا مِن حظّي في الحياة.

مقدّمة

هي شراعاتُ الأحلام حينما تتحرّش بها العواصف..

هي الأشواك حينما تقيم سرادقاتِ العزاء على أرضنا..

هي الحياة إذًا،

وهي تفاصيل الأوجاع.

تقديم القاصّ والكاتب والنّاقد
الأستاذ (محمود توفيق حسين)

مجموعة (أرض الشوك) العملُ الأوّل للأديبة وصال تقة، هي كراس أنثوي بريء، تملّكتني في قراءته تلك الرّهبة اللطيفة التي تحفّ الأشياء الخاصّة المخبَّأة، تلك (الحرمة) لكرّاسات النساء المدسوسة فيما لا تصل إليه أيدي الأزواج المشغولين عن التفتيش، ولو في الوجوه؛ تلك الكراسات التي يسطرنَ فيها بحبر الحنق وعلى الورق الأصفر المبلّل بالدمع الحار، وعلى الورود والفراشات المجفّفة للآمال القديمة التي خابت، أثناء تأدية كومة متراصّة من الأعمال المنزلية المرهقة والمستديمة، فجاءت التعبيرات حادّة ومتوتّرة وسريعة، تليق بنساءٍ مستاءات يسرقن لحظات البوح الموجِع.

نساءُ وصال تقة المكافحاتُ لسنَ حزبيّات تخرّجن على مقاعد الأحزاب الاشتراكية العتيقة، لا.. ولا هنّ مِن المتسربات إلى القاعات المكيفة للنسوية الحديثة، وكذلك لم تصنعْ وصال تقة بطلاتٍ من وحل الرّذيلة وسيَّبتهن إلى قاع المدينة وطاولات المقاهي يمضغنَ البؤس ويمضغهن؛ إنما فتحت كراسَها الأنثوي لتلك الجروح المؤلمة والمعتادة داخل النسق الاجتماعي المألوف.. وفي النهاية، وبطريقتها، استطاعت أن تخرج من بيوت مثل بيوتنا بطلاتٍ، بغير قصّ شعورهن، واستطاعت أن تدفع ضحايا، بغير أحمر الشّفاه الغليظ والدموع.

-١-

لن يأتي..

وقف القطار بالمحطّة الأخيرة بعد سفر طويل متعب. تلك المحطة التي باتت تعرفها، وتعرف كلّ حقائبها وكلّ مناديلها. تحفظ مواقيت ذهابها، وتعلم متى تئوب.. تحتفي معها بمراسيم الخيبة بعد كلّ عودة، وتشاركها دموعَها عند كلّ ذهاب.

حملت أمتعتها وتأهّبت لمعانقة "فاس" مسقط رأسِها وموطن والديها وأبنائها الذين غابت عنهم قرابة شهرين.. شيء ما كان يكبح شوقَها ويُصَيِّر دمَها المشبَّع بالحنين قواميسَ لانتظار الذي لا يأتي.

كانت ساكنة لوْلا أنّ ذاك الصراخ داخلها كان يسرق منها السكون.

لن يأتي..

كانت على يقين أنّه لن يأتي.

لم يجشّم نفسَه عناءَ عيادتها وهي تخضع لتلك العملية الجراحية متحجّجًا بالعمل، لكنّ العملية أجريت يوم جمعة، وظلّت بالمستشفى إلى عصر الأحد.

كلّ المدارس تغلق يوم الأحد، والسبت كان يوم عطلة له.. وتلك الرّخص في التغيّب التي يخوّلها القانون؛ ما جُعلت إلّا لمثل هاته المواقف.

لم تعاتبْه.. ولم يكلّف نفسه السؤالَ عن موعد عودتها.. لن يأتي.

اختلطَ الحنين بالأنين، والشّوق بصفعات الخذلان..

احتشدَ النّاس على باب المحطة؛ يلوّحون بأيديهم من وراء الزجاج لحبيب عائدٍ أو لقريب زائر. عناقات حارّة، واستبشارات على الوجوه. بحثت عنه بينهم.. كلّهم كانوا هنا إلّا هو.. كان كلّ شيء حولها باهتًا.. غابت عنها كلّ الوجوه.. تداخلت صورها.. واختلطت كلّ الأصوات.. اتّجهت نحو الباب، لا ترى غير صورته ولا تسمع سوى وقْع خطاها المتثاقلة وصرير عجلات حقائبها.. بحثتْ بين الوجوه مرّة أخرى؛ علّها تعثر عمّن تشبهها.. عن امرأةٍ نسي زوجها يومًا أن يعودها وهي مسجّاة في المستشفى بمدينة نائية، ونسي اليوم أنْ يسألها عن موعد عودتها، ونسي- لمدّة سنتين- أن يزورها بتلك المدينة التي تركها بها تنتظرُ حركة انتقالية تجمع شملها بأهْلها.. فضّل الرحيل، وتنكّر لعودة تطمئنه عليها وعلى أحوالها، وتركها تتجشّم عبور الطرقات، وطيّ المسافات لتحظى بقُبلةٍ حانية وضمّةٍ مشتاقة من أبنائها الذين حرمت من براءتهم وحرموا من حنانها.. تزورهم بين الفيْنَة والأخرى تقضي مصالحهم، وتراقب سيْرَهم الدّراسي، وتصنع

لهم من الأطباق والحلويات ما يكفيهم خلال غيابها.. ثمّ ترجع أدراجها كما أتت، تحلم بيوم يلتئمُ فيه الشّمل، ويرجع الطائر المهاجر إلى عشّه.. تذرف دموعها الحرّى على الأرصفة، وتروي- دون أن تملّ- لجليساتها بالمقْطورة؛ عن ذلك الحيف الذي طالها حينما قُبل انتقال زوجها دونها.. تحكي عن تلك الإدارات التي طرقت أبوابها، وتلك الشّكايات التي لم يُعبأ لها، وعن ذلك البُعد المضْني الذي لم تجدْ له من حلّ سوى الصبر إلى حين فرج قريب.

حلّقت عيناها الذابلتان للمرّة الألف تبحثُ بين الجموع عن ذلك الذي كانت متيقّنة أنه لن يكلّف نفسَه عناء استقبالها، لكنّها كانت مصِرّة على أن تعيش طقوسَ البحث المضْني كي تبرّر لنفسها مرّة أخرى- بتلك الفلسفة الساذجة- أنّها إن لم تعثر عليه بين الحشود؛ فلأنّه لم يأت، لا.. لأنها لم تبحث عنه..

لم يأت.

كانت محطّة سيارات الأجرة شبهَ فارغة، فقد سبقها إليها المسافرون حينما كانت تقمع رعشة الأسى والخذلان.. لوّحت لآخر سيارة، لكنها لم تتوقف..

كلّ شيء حولها كان صامتًا باردًا شاحبًا؛ حقائبها التي باتت معْتادة على الرّحيل، مناديلها، نظارتُها الشمسية البنيّة التي كانت تحجب عن عينيها

هجيرةَ حزيران، غطاءُ رأسها، جلبابها.. وكلّ الناس حولها.. حتى الشّوارع كانت- كما أحلامُها- ساكنة منكّسة الأعلام.

نكّست رأسها، وجرتْ خطاها المتثاقلة، وغرقت في أحلامها..

بسيطة كانت أحلامُها.. أن يأتي ويضمّها.. ينظر باشتياق في عينيها فتنسى القطارَ والحقائب والمسافات الطويلة.. تنسى وعْثاء السّفر بين أحضانه، ومرارةَ شوقها في غيابه.

حلمها، ذاك البسيط، شرع الشبابيكَ المواربة، وحلّق يبغي التحرّر من أقفاصها..

حلمُها الذي طار، هدّه التّحليق فودّع.. مات في يوم مرتين؛ فوق شفاهها وعند الرصيف الكئيب لقطار المسافات البعيدة.

-٢-

نكران

دخلت "فطيمة" تجرّ رجْلها اليمنى المتورّمة، فتبدو كلّما حرّكتها أنها ستسقط تحت وطأة جسمها المكتنز. استعانت بالجدار حتى وصولها إلى حيث اجتمعت النساء يبكين ويولولنَ، في انتظار إخراج جثمان "رقية" التي توفّتها المنون منذ يومٍ في أحد المستشفيات الخاصّة بعدما ساءت حالتها فسلّمت الروح لبارئها.

كانت الفيلّا على اتساعها تبدو كخليّة نحل. وكان ذلك الأزيز المنبعث من الجناح المخصّص للنساء يحكي عن امرأةٍ كريمة حانية، ويلهج بعبارات الثّناء والرثاء من أقارب ومعارف، وكثرة كاثرةٌ لم تجمعها بهنّ يومًا آصرةُ دمٍ أو قرابة؛ ولكن جمعتهنّ جيرة متأصلة في معاني الوفاء والإخلاص منذ أكثر من ثلاثين سنة مضت في ذلك الحي الصفيحي البسيط المهمّش.

لم يُنْسها يومًا انتقالها إلى بحبوحة العيش بعد أن توظّف أبناؤها وشغلوا مناصب مرموقة؛ فاختاروا لها فيلّا تليق بحجم تضحياتها بعد وفاة زوجها، ومكابدتها للإنفاق عليهم، وحثّهم على مواصلة دراستهم رغم كلّ الظروف؛ لم يُنسها ذلك الانتقال النّوعي من الفقر المدقع إلى الغنى المترف صويحباتِ

درْبها في العمل في معمل الزيتون قبل أن يقرّر صاحبه إغلاقه وتشريد مَن كانوا يسترزقون منه.. لم يُنسها جاراتها اللاتي كانت توكِلُ لهنّ السّهر على أبنائها أثناء غيابها نهارًا بحثًا عن لقمة العيش، فكنّ لها نعمَ الخلف فيهم ونعم المربي.

لم تنسهنّ في الأعياد.. لم تنسهنّ في كلّ دخول مدرسي.. لم تنسهنّ في مناسباتهنّ بشتى أشكالها المُفْرحة منها والمحزنة، فكانت توادهنّ وتغدق عليهنّ ممّا أنعم الله عليها به، وتزورهنّ بمناسبة ومن غير مناسبة؛ تفترش معهنّ الأرض أمام البيوتات كما كانت تفعل من قبل، يتذكرن تلك الأيام الخَوالي، ويتفكّهن بسرد مغامراتهنّ واجتماعاتهن التي لم تكنْ تخلو من مقالبَ وتسلية، يترحّمن على مَن واراهن التراب، ويخطّطن لزيارة مَن قبعتْ في مشفى أو مَن غيّرت السكن.

كانت أمتع لحظاتها تلك التي تقضيها معهنّ، تنتشي بالذكريات، فتقسم عليهنّ ألّا يتكلّفن معها، فكسرةُ الخبز وصحنُ الزيت وكأس الشاي المنعنع الذي جمعهنّ من قبل سيجمعهنّ إلى الأبد. وتُغلظ عليهنّ الأيْمان بألّا يطهينَ لها ذلك اللحم، وتلك الخضروات المتنوعة التي اعتادت أن تحملها لهنّ كلّ زيارة، وتفرض عليهنّ تركَها ليستمتعن بها مع أزواجهن وأولادهن بعد ذهابها.

حينما مرضتْ ولزمتِ الفراش، لم تجد سوى جاراتها وبناتهن يتناوبن على خدْمتها ويرعينها خلال فترات دوام أبنائها وبناتها، بل منهنّ مَن تطوعت للمكوثِ معها إلى أن يقيم الله صلبَها، وينعم عليها بالشفاء.

تقدّمت "فطيمة" تتعكّز يدَ إحدى جاراتها وسط الجموع الباكية.. تتوقف.. تمسح عينيها المتورّمتين بمنديل أبيض، تهزّ رأسها في حركات متتالية، ثمّ تستأنف زحفَها.. تبحث بين الوجوه عن بنات رفيقة دربِها لتعزّيهن وهي التي كانت أيضًا تحتاج مَن يعزّيها ويواسيها في مصابها.. تخترق الجموع، وتتبادل عبارات العزاء مع معارفها، وتكتفي بإلقاء السّلام على من لا تعرف.

كانت رائحةُ رقية تنساب في كلّ زوايا المكان، تتسرب بين أنفها ومنديلها الأبيض، بين قطع ملابسها، بين زجاج نظاراتها، ثمّ تنبعث روحها لتسلم عليها وتعانقها في شوق كما كانت دائمًا تفعل.. تراها وهي تحمل أكواب الزّبادي تدلّلها بها، وأدوية لكلّ تلك الأمراض التي هجمت عليها؛ تحكي لها مع كلّ أنين ومع كلّ جرعة دواء عن شعرها الذي شابَ، وعن عظامها التي وهنت، وتذكّرها أنّ ما بعد القوة والعنفوان؛ سوى ضعفٍ وشيبة.. تسمع صوتَها القادم من رحلة سحيقة وهي تمازحها:

– "لا تذكري لأحدٍ أنّك قرينتي سيعلمون أنني عجوز مثلك.. الحمد لله الذي عافاني.. أنا ما زلت شابة".

فتردّ على مزحتها بأخرى:

-"لست عجوزًا، انظري أسناني بيضاء صُلبة متراصة.. ثمّ إنني أنوي بعد شفائي الزّواجَ من شابّ لتتأكّدي من صحة ما أقول".

ويمْضيان سويعةً من زمن يتراشقان المزح والابتسامات.

وحدها رقية كانت لها السندَ والمعين بعد الله.. وحدها كانت بجانبها وقت أزَماتها، فتكفّلت- في صمت- بدوائها وبمصاريف علاجها. آزرتها وواستْها في الوقت الذي وكَلَها أبناؤها إلى الهجر يفتصِدُ فؤادها ويبضعُه النّكران، وطفقوا يصارعون قلّة ذات اليد، متنكّرين لتلك التي أفنت زهرة شبابها تحثّهم على التعلّم كي ينقذوا أنفسهم من براثين الفقر، فيأبون إلّا المضيّ في سكّة الجهل والرذيلة ومعانقة السّجون ومخافر الشرطة. غابوا فغابت معهم بسمتُها وبهجة الحياة.. وباتت تنتظر- في صبر- ذاك اليوم الذي تنتهي فيه رحلتُها المضنية في دروب الخيبة وأزقّة الخذلان.

للحظةٍ تمنّت لو كانت الآن مكان "رقية".. لو صاحبَتْها في رحلتها الأخيرة كما كانت تفعل حينما ترافقها في مشاويرها، أو لزيارة صديقة.. ضاقت بها رحابة المكان، وتلألأ الدّمع في عينيها، وأحسّت للحظةٍ أنها صارت يتيمةً وحيدة.. لمحت مكانًا شاغرًا من بعيد، فأشارت لمسندتها أن تمضي بها لتجلس بالقرب من "رشيدة" التي جاءت وزميلاتها في العمل تعزي صديقة طفولتها في أمّها.

ارتطمتْ على حافّة الفراش، ألمُ رجلِها المتورّمة يزيد توترها.. وضعت يدَها على فخذ رشيدة تستفزّها لتقوم لتسلم عليها؛ فلا تفعل:

- ابنتي رشيدة، كيف حالك يا ابنتي؟ وكيف حال أمّك وإخوتك؟ علمتُ يا ابنتي بوفاةِ أبيك، فقط رجلي التي لم تصلكم.. محبتكم القديمة مازالت تعشّش في سويداء القلب.. الرّوماتيزم يا ابنتي، وقلة ذات اليد، وانشغال الأبناء عنّي بزيجاتهم وأولادهم.. والآن وفاة "رقية".. اللّهم بدّل الأحوال.

هزّت رأسها في حركات دورانية. أسعفها الدّمع فانهمر فوق خدّيها المنْكمِشين، واسترسلتْ تعتذر عن تخلّفها عن حضور جنازة جارها متحجّجة بالمرض، وبُعْد الشّقة، وبانقطاع أخبار "عائشة" عنها منذ انتقلت إلى السّكن بشقة اقتصادية بأحد الأحياء التي أصبحت كالفطر البريّ تكتسح أطراف المدينة.

مسحتْ عينيها، ثمّ أردفت لتصحّح بعض المفاهيم، وتضيف ذلك السبب الحقيقي الذي جعلها تتخلّف:

- الحقُّ يُقال، أمّك أيضًا لم تعزني في موت أحمد ابني، ولم تعُدني حينما شارفْتُ على الموت بتلك الذّبحة الصدرية لولا لطف الله.. لم تودّعوني حتى

عند انتقالكم من بيتكم. لم تخبرني سوى الجارة الجديدة التي اشترت بيتكم برحيلكم حينما عدتُ من"القنيطرة" من عند أخي.

فجأةً اكتشفت أنّها تكلّم نفسها، وأنّ جليستها لا تجيبها، ولا تعير اهتمامًا لثرثرتها..أتراها بدأتْ تخْرِف؟ أليست تلك رشيدة التي طالما استقبلتها بغرفتها المتآكلة كلّما رجعت من المدرسة ولم تجد أمّها؟ أليست تلك التي كانت تسقيها من لبن ماعِزتها المشاكسة "ذهبية"، وتطعمها خبزًا وزيتونًا أسود مخللًا في الزيت والزّعتر في انتظار عودة أمّها؟ أليست تلك التي تعلّق بها ابنها حينما كانت تزورهم كلّ أحد؛ تعينها على سقي الماء وعلى غسل ونشر ملابسها وملابس أبنائها؟

لو كانت "ذهبية" حيّة لكانت عرفتها، ولكانت ذكّرتها بتلك الضربات التي كانت تتلقّاها كي تقلع عن مشاكستها وهي تحاول حلب ضرعها لأجلها.

- ألست رشيدة بنت عائشة ومحمد؟ جيراننا القدامى بحيّ.. بإمارة كرمة العنب المتدلّية من بيتي على سطح بيتكم.. لم تكوني صغيرة حينَها.. نعم.. نعم كنت شابّة، بإمارة رفضك الزّواج من ابني "خالد" الميكانيكي.

نظرتْ إليها رشيدة باستغراب مفتعَل منكرة ذاك الذي كانت ترويه..

غرقت "فطيمة" في سعالٍ تختلف له أضلاعها. شرقت عيناها، وامتزجت دموعُ الحزن التي لم ترقأ لها منذ علمت بالفاجعة؛ بدموع السّعال.. حينما مسحت عينيها وفمَها بمنديلها الأبيض انتبهت فإذا برشيدة قد غادرت المكان.

في المساء، حينما زارت رشيدة أمّها حكتْ لها عن تلك الفيلا الفارهة التي حرمت نفسها من زيارتها أثناء مرض "رقية"، وعن ذلك الأثاث الفاخر الذي كان يملأ أرجاءها، وعن جاراتهنّ القديمات وكيف كنّ يثْنين على المرحومة.. ولم تنسَ أن تذكر لها ما حصل مع "فطيمة" وأنّها قد نجحت فعلًا في التملّص منها قبل أن تسترسل في الحكي أمام زميلاتها؛ فيكشفنَ ذاك الذي كانت تجهد نفسها كي لا يكتشفوه.

-٣-

رصيفٌ بلا قطار..

أهي الحقيقة تلك التي كانوا يجْهدون أنفسهم كي يقنعوها بها؟

أهي تلك التي نرغَم أحيانًا على قبولها؛ فتأخذ شكل الحقيقة؛ لا لأنها حقيقة، ولكن لأنّ الواحد لا يصنع أغلبية، ولأنّ وشوشاتهم أصبحت ضجيجًا ونعيقًا تعجّ به الأرصفة والطرقات؟

رمتْ بحقيبة يدِها على السّرير بعصبية، وجلست بمحاذاتي مطأطئة الرأس، ساهمة، شاردة. نظرت إليها أستكشفُ ما يدور بخلدها، فزمّت شفتيها، وأصعدت زفرةً انشقت لها الأرض تحتنا، وسبحت في نحيب عقيم حال دونَ ترتيب عباراتها، فتناثرت بين دمعةٍ ودمعة، وزفرة وزفرة؛ ثائرة متمردة، تصبّ جامَ غضبها على المجتمع، وتلعن الزواج، وتنزل سخطها على جنس الرجال.

كان كلّ شيء على ما يرام حينما ودّعتني لتشارك أفراد العائلة فرحهم بزواج ابنة خالتها.. مرغمة كانت على الذهاب.

كلّ مَن حولها قد تزوّج؛ أختها الصغرى، وبنات أخوالها، وها هي ذي الآن ابنة خالتها ذاتُ العشرين سنة تلحق بركب المتزوّجات.

كانت تُمازحني من حينٍ لآخر قائلة:

- "لم تنتظري أن نقيم نفسَ الحفل معًا في ليلة واحدة كما كنا نحلم حينما كنّا صغارًا، سأنتظر ابنتك إذًا.. لن تمانع حتمًا أن نحتفل معًا بعرس جماعي.."

كانت تلقي مزحتها ثمّ تردف:

- "الحمد لله أنّك لم تنتظريني.. لكنت أمضيت حياتَك في قاعة الانتظار.."

لم تكنْ تعلم أنّني فعلًا كنت أمضي حياتي في قاعة انتظار الذي لا يأتي.. وأنني اهتديت في الأخير إلى ألّا أنتظر.

لم تكن تعلم أنّ الانتظار حياة.. وأنّ أولئك الذين لا ينتظرون؛ قد مات منهم الإحساس، وصارت مشاعرهم متبلّدة.. وحتى نوماتهم باتت عارية من الأحلام.

هي جميلة ومثقّفة وذكية، وروح الدّعابة فيها تجعلها خفيفة الظلّ محبوبة من الجميع. لا ينقصها ما يزهد الرّجال فيها.. كانت هي الزاهدة.. تجربة خطوبتها من ذلك المهندس الذي أثخنها بالخيْبات، وكاد يجعلها تكره جنسًا اسمُه الرجال، لولا إيمانها بخطأ التعميم؛ كانت كفيلة بجعلها ترفض العديدينَ ممّن تقدّموا لخطبتها.. كانوا نسخةً منه، وهي لم تكن تؤمن بفكرة

الاستنساخ. شروطها- تلك المشروعة- لم تكن سوى أن تعيش، لا أن تمرّ بمحاذاة الحياة. وفارس أحلامها رجلٌ لكنْ بمواصفات رجل.. استكثروا عليها الأحلام، واستكبروا شروطها، واستخسروا فيها حياة الانتظار.

كانت تتقدّم بشكل ملحوظ في العمل وتترقّى فيه بجدارة، لكن مع تقدّمها في عملها؛ كانت تتقدّم أيضًا في السنّ ولم يكن نجاحها ذاك كافيًا لإلجام تلك الألسنة الأشحّة الحداد التي كانت لا تفتأ تتحسّر عليها، وعلى ذاك القطار الذي أبى أن يقف بمحطّتها.

كلّ العائلة مجتمعة ليلتها، وفي خشوع، كان الكلّ يصغي "للمسمعين" الذين شنّفوا الآذان بقبسٍ من القرآن يتلونه جماعة، وملأوا الفراغات بأناشيد صوفيّة من هنا وهناك فجمعوا بذلك بين البدعة والشركيّات.. الأجساد تتمايل على وقع المقامات، والدّموع تذرف لذكر- النبي صلى الله عليه وسلم- والألسنة تلهج بطلب الشّفاعة كلّما ذكر، عليه أزكى الصلاة والسّلام. كان منهم الطبيب، والمهندس، والأستاذ، والمثقف، وقلة قليلة من كبار السنّ والأميّين، لكن جمَع بينهم كلّهم قلّة علم وانعدام تفقّه، فجعلوا من مراسيم البدْعة وعبارات الشرك؛ طقوسًا روحانية يروونَ بها أرواحهم الظّمأى، ويقتفون بذلك الخطّ الذي رسمه كلّ الأقارب وكل الجيران، وجعلوه عادةً لهم قد حرّموا الحياد عنه.

مرّت السّاعات عليها ثقيلة وهي غارقة في لَجج أفكارها.. تعدّ الدقائق والثّواني، وتنتظر فرجًا قريبًا بانتهاء الحفل.. هي تعلم ما يدور بخلدهم، وتفهمُ وشوشاتهم.. لكنّها كانت قوية ومقتنعة بأنّ الزّواج قضاء، والطلاق قضاء، والعنوسة قضاء، فشغلت نفسها عن الخوف من إكمال حياتها دونَ زوج ودونَ أطفال؛ بأهداف سامية نبيلة، ترعى أمّها وتقضي حوائجها وحوائج مَن حولها، وتخلص في عملها، وتحقّق ذاتها، ولا تترك للإحباط مكانًا في حياتها كي لا يهدمها.. رغم كلّ قوتها وإيمانها بقدرها؛ إلّا أنها لم يكنْ بوسعها رفعُ رأسها ومشاركة الجميع بهجتهم، فقد غصَّت- كما كلّ لقاء عائلي- بكلمات المواساة، ونظرات الأسى من أقاربها على شبابها الذي تفنيه بين المدرّجات والسجلات والأرقام والحسابات دون أن تتمكن من أنْ "توفّر" لنفسها زوجًا يكون مدْعاة لتفاخرها أمامهم، وبعبارات العتاب على تلك "الفرصة الثّمينة" التي ضيعتها منذ سنوات حينما فسخت خطوبتها من ذلك المهندس "اللقطة" الذي تتمنّاه- في نظرهن- كلّ فتاة، فتكفّلت الحاضرات بإعلام الغائبات، والمقرّبات من إفهام صديقات العائلة اللّاتي لم يحصل لهنّ الشرف بلقائها من قبل؛ أنّها مهندسة كبيرة، وأنها قد قاربت الأربعين، وأنّها إلى الآن من غير زواج.. فتلتقي نظراتهنّ كلّهن في تفاصيل وجهها يتفرّسنه، وتنسجم عباراتهنّ المختلفة لتختزل كلّها في كلمة "مسكينة"، لا يتحرّجن من رفع الصوت بها؛ مقطّبات الجبين، مقوّسات الحاجبين، مكملات لتلك

اللوحة الفنية الجريئة بهزّ الرؤوس تحسّرًا، وبإصعاد زفرات هي طريقتهنّ المثلى للمواساة.

كانت مضطرّة لإكمال السّهرة مطأطئة الرأس حتى لا تصطدم بنظراتهن الفضولية، وحتى لا تضطر لمجاملتهنّ بابتسامة صفراء مخادعة من أجل إقناعهنّ أنّ كلّ شيء- رغم كلّ شيء- على ما يُرام، وأنها راضية بقضاء الله، وأن ذلك الذي يسمّينه هنّ زواجًا؛ قد زهدتْ فيه ورضيت بحياة الانتظار.

ولأنّها وحدها مَن كانت تعلم قيمتها وقيمةَ روحها التي ستضطرّ لأن تذوب يومًا ما في أخرى، فقد كان لا بدّ من التمهّل في الانتقاء حتى لا يكون ذلك الذّوبان سببًا في إزهاقها.. ولأنّها كانت تعلم ألّا أحد يفهم فلسفتها، وأنها وحدَها المسئولة عن التّخطيط لحياتها، فقد لزمتِ الصّمت، وتفادت ما يمكنه أن يكون سببًا في فتح نقاش عقيمٍ محسوم منذ البداية؛ ما دامت لا تمثّل ولا يمكن أن تمثّل وحدها الأغلبية. شغلت نفسها عن وشوشاتهنّ وتمْتَماتهن بجوالها "تنظف" المساحة المخصّصة فيه للرسائل، تبتسم تارة لمزحةٍ مِن مزحها التي لا تفتأ تداعب بها صديقاتها، وتمسح تلك التي لم تعد لها بها حاجة. توقّفت أناملها فجأة عند تلك الرسالة المتغلغلة في سراديب الوجع، الموشّاة بنقوش الخيبة من خطيبها السابق. كانت قد قرّرت أن تتركها شاهدًا على مشروعيّة قرارها بالانفصال عن ذلك المسخ الذي كانت ستقترف

جريمةَ عمرها بالارتباط به.. وكأنّ الروح قد نفخت فيها، في هذه اللحظات بالضبط، وجعلتها تنبعثُ من بين ركام كلّ تلك الرّسائل المنسيّة لتستفزّها وتنهالَ عليها بسياطها العاتية، تتواطأ مع اللّجلجة المتجمهرة أمامها.. تمنّت لو كان بإمكانها الوقوف أمام كلّ هؤلاء الحضور لتقرأ لهم فصلًا من فصول ملحمة الخذلان التي أوجعتها وصيّرت- لمدةٍ- حياتَها جحيمًا.. تقنعهم أنّها لم تخترْ لنفسها طواعية حياة الوحدة، وأنه كان من حقّها أن تنقذ نفسها منه ومِن أشباهه قبل أن تتلَف أعصابُها، وتَفقد أنوثتها وإنسانيتها، وتموت بين حناياها بهجة الحياة. وكأنّها استفزّت بتلك الرسالة شبحَ ذكرياتها معه، فاستطارت كأراجوزات أموات مستشيطة غضبًا، تودّ الانتقام منها إذ بعثتها من مرقدها.. هجمت عليها لتلمحَه وهو جالس قُبَالتها خلال لقائهما الأوّل، بشخصيته الباهتة، وملابسه البسيطة غير اللائقة بلقاءٍ أوّل مع فتاة تفيض أنوثة وأناقة وعذوبة.. فوجئت بضآلة ثقافته، وبمنطقه الذي لا يشبه في شيء حذاقة المهندسين.. وبحديثه المملّ الذي ليس له نهاية عن المال والمشاريع والادّخار.. سمعته وهو يسألها في ذلك اليوم التاريخي المشهود عن راتبها وعن مدّخراتها، ثمّ ما يلبث، وهي غارقة في لجج صمتها وصدمتها من هول ما كانت تسمعه وتراه، يخطّط للمستقبل الجميل الذي ينتظره؛ حينما ستتكلّف هي بالإنفاق على نفسها وبكلّ مصاريف البيت، حتى يتسنى له هو سداد تقسيط الشّقة التي ستأويهما، وتغيير سيارته المسخ مثله.

انقضّ على ذاكرتها الموشومة بالخيبة ذلك الموقف النّذل منه في لقاء آخر، حينما اضطرّها إلى دفع ثمن كأس عصيرها، متحجّجًا بأنّها لا بدّ أن تعتاد منذ البداية على فلسفته ومبادئه في الحياة، وأن تقتنع بأن الحياة الزوجية في أدقّ تفاصيلها تشارك.. يتوغّل شريط الذكريات لينبش في الجراح التي حفرت أخاديدَ في أحشائها، وبقيت ندوبُها شاهدةً على شهامة ونخوة رجل أبَى يومًا أن يوصلها إلى بيتها بسيارته لأنّ سكتيها تفترق، ولأنّها موظفة وتمتلك حقّ أجرة سيارة الأجرة، فتركها في ذلك المساء الشتوي بالمحطة، تقاوم العتمة التي أغرقت فجأةً المدينة في زخرفتها، وتصارع لفحات زمْهرير دجنبر الممتزج بصقيع الخيبة ورعشة الأسف.. تحتمي بسقف المحطّة من قطرات الأمطار، وبوجود المارّة من ذلك الضجيج داخلها كي لا تصرخ.. ترقب- في صمت- سيارته المتآكلة المتهالكة، يتطاير خلفها دخانها الرّمادي الكثيف الخانق كسحاب ذلك اليوم الممطر، أو كأنه شعر منفوش لعجوز شمطاء.. انقبض صدرها وهي ترى نفسها في ذلك المساء تُصارع البراكين المتأجّجة في أحشائها بين كرامتها التي امتهنت، ونفسها التي عزّت عليها، ونخوته التي انتحرت منذ لحظات أمام عينيها.. تتهدج أنفاسها.. خوفٌ رهيب يسري في عروقها.. تقمع حاجتها الملحّة في البكاء، وتزداد رغبتها في عبور شريطِ ذكرياتها بسرعة كي تستريح.. تحثّ بها الذّكريات الخطا لتقف بالمحطّة

الأخيرة؛ فترى نفسها وهي تسأله الرفق بها وبشرايينها التي مزّقتها خيباتها المتكررة فيه وهي بعْدُ على البرّ، فكيف إذا مخرَتِ العُباب؟ تسأله، والدّمع قد جافاها، وغصّة في حلقها تكاد تفتك بها.. تتوسل إليه أن يتركَها في سلام، وأن يرحل عن سمائها التي لبّدتها السحب مُذِ اقْتحم حياتها.. ترى ظلّه يتراقص في ذلك المقهى الشاهد على كلّ تفاصيل خيباتها فيه.. تسمعه وهو يرغي ويزبدُ ويهدّد ويتوعّد ويشتمّ ويلعن.. يختم سلسلة قذائفه بتذكيرها بحصيلة خسارته المادية خلال أشهر خطوبتهما.. تغيب لوهلةٍ عن ذلك المشهد فلا تلتقط أذناها سوى شظى بضع كليْمات تتردّد صدى في مسامعها: "بنزين" زين زين زين، "بطاقات شحن" شحن شحن شحن، "هدايا" يا يا يا".. لتستفيق على وقع صراخه وهو يطالبها بأن ترجع له كلّ هداياه: خاتم خطوبتهما، وقارورة العطر الرّخيص التي أهداها إليها أوّل لقاء، وقلادة عنق من خرز بنّي اشتراها لها على مضضٍ من معرض للصّناعة التقليدية خلال زيارتهما له.. تلتقط أنفاسها من بقايا ذلك الكابوس الذي كان جاثمًا فوق صدرها.. ترتعش.. تستسلم مرّة أخرى لغمغمته المقزّزة المنبعثة من تلك الرسالة القابعة منذ سنوات في ثنايا ذاكرتها وذاكرة جوّالها، والتي استشاطت هذا اليوم غضبًا إذْ نبشت قبرها وبعثتها من مرقدها:

"لا تنسي شاحن بطارية المحمول".

ذاك الشّاحن الذي أعاره لها حينما أخبرته أنها لم تردّ على مكالماته لأن هاتفها كان غير مشغل بسبب شاحن البطارية المتْلَف.. أبتْ نفسه الكريمة إلّا أن تستردّه.

تقافزت كلّ تلك الذّكريات المريرة أمام عينيها، وتراقصت أشباحها في ذلك البَهو؛ حيث الوشوشات ونظرات الأسى، وكأنها اختارت رحابة الزمان والمكان لتثبت لها مرّة أخرى أنها على حقّ، وتذكرها بمشروعية انتظارها، وبفداحة الجُرم الذي سترتكبه في حقّ نفسها إن هي رضيت بالارتباط بشبهٍ مِن أشباه ذلك المسخ الذين باتت تعرفهم وتعرف أهدافهم ومبادئهم وفلسفتهم من خلال أوّل لقاء، حينما يبدأون بالتحقيق معها بخصوص مرتّبها وفيما تنفقه وكم تدخّر منه، وحينما يصدحون في زهو، وكأنّهم يغرونها بتفتّحهم المزعوم، بمبادئ المساواة والتشارك بين الرجل والمرأة، فينكشفون لها دون أن يقصدوا، وتنفض يديها منهم دون أن تجهد نفسها في شرح أو توضيح.

لم تكنْ تريد المساواة، ولا تغريها مبادئ التشارك المفتعلة. كانت تريد رجلًا بمواصفات رجل.. قوّامًا.. يحميها ويحتويها.. يتفهّمها ويرحم ضعفها.. يحترم رأيَها ويحسّ بأن لها عقلًا وكيانًا مستقلًّا.. ينصت إليها دون أن يكلّ أو يملّ، ويحسّ باحتياجها له، ويتفهم أن في أعماق تلك المهندسة

القوية؛ طفلة بريئة قد تتوه من غير بريق عينيه، ومن دون لمسة حنانه وكلمات حبّه وامتنانه.

مرّ الحفل عليها بطيئًا كئيبًا، كانت بين السّندان والمطرقة: إمّا أن تنسحب لتوصَمَ بالغيرة من العروس؛ لأنّ الركب قد تأخّرعنها وتجاوزها لذات العشرين ربيعًا، أو أن تستسلم لأغلال مواساتهم المؤلمة حتى الإغماء، وتتجرّع نظرات الإشفاق حتى الثّمالة.. وأن تبقى، بين هذا وذاك، محافظةً على ابتسامتها الرّخامية، وعلى تناغمها مع نفسها حتى النهاية.

لسببٍ ما اختارت البقاء.

انتهى الحفل، وشرع المنشدون يجمعون مكبّرات الأصوات، فانسلّ خالها، ذاك الأستاذ الجامعي ومدرّس المهندسين الذي أمضى كلّ شبابه بفرنسا دراسة وعملًا؛ انسلّ من بين الحضور، واتّجه صوْب "المسمعين". اشرأبّت الأعناق، وتحلّقت العيون والآذان تتجسّس على همسه المطول في أذن قيدومهم، ويراقبون في فضول يده الممتدّة لحافظة نقوده لتخرج ورقة مالية كانت مكافأته للفرقة.. يتبعه خالها الطبيب بورقة أكثر من الأولى قيمة، لتنهال عليهم أموالٌ من زوجات أخواها المثقّفات، وأخرى نيابة عن جدّتها، تلك المرأة العجوزالمريضة المسجّاة في غرفة والتي كانت تصدح في وجْهها كلما رأتها بحسرتها عليها، وكانت لا تملّ من إخبارها في كلّ مرّة أنها إن

ماتت؛ فبالْتِياع كبدِها على حفيدتها التي ما بها من عيب سوى أنّها لم تتزوّج بعد.

ساد صمتٌ رهيب.. ارتفعت الأيدي إلى السماء وصدحت الألسنة بالتأمين على دعاء عريضٍ طويل بحجم المكافآت، منْبَعث من ملء شدقي ذلك الذي كان منذ قليل يترنّم بقصائد الشّفاعة وأبيات البردة من تلك الفرقة التي أحيت الحفل:

– "اللّهم يا مجيب الدعوات، ويا فارج الكربات، فرّج كرْب أمَتِك "أسماء" بنت إدريس وفاطمة، وأزل همّها، وأزح غمّها، وارزقها زوجًا من حيث لا تحتسب.. اللّهم أقرّ عين أمّها وجدّتها بزواجها.. اللّهم قد طال انتظارها فقرب البعيد.. اللّهم إن كان تأخّرها عن الزّواج من عمل حاسد أو سحر شرير اللّهم فافْسخه، وإنْ كان من عين عائنٍ فردّ كيدَه في نحْره.. اللّهم فكّ وثاقها، وسرّح قيودها، وعجّل بزواجها..."

لم يدرْ بخلدها للحظةٍ أن نهاية الحفل التي كانت تنتظرها بفارغ الصبر، وأنّ ذلك الإفراج الذي قد بات وشيكًا؛ سيكون سببًا في إحراج جديد، وتنكيلٍ من نوع آخر.. إحراج على رؤوس الأشهاد، وإلصاق لتهمةِ العنوسة بما لا يسعُها معه احتجاج ولا استئناف ولا حتى شجب أو تنديد..

لم تتمالكْ نفسها وهي ترى كلّ الأنظار متّجهة صوبها ترصدها في إشفاق، فتطيل بعضهنّ صوتَها بالتأمين تودّدًا لها، وتضيف أخرى اسم ابنتها أو قريبة لها كي تعمّها أيضًا بركةُ الدّعاء.

حملت حقيبة يدها، والدّموع تملأ مقلتيها، وغادرت المنزل بخطى كسيرة تجرّ أغلال "عار" ما بيدها له من حيلة.. تتوارى من القوم لسوء ما وصَموها به، أتقبَلُه على هون، أم تدسّ وجهها في التراب.

أدارت مفاتيح السيارة، فلم تتنبّه إلّا وهي جالسة بمحاذاتين واجمة ساهمة ثائرة، تصبّ جامَ غضبها على المجتمع، وتلعنُ الزواج، وتنزل سخطها على جنس اسمه الرجال.

-٤-

نكسة..

"جمانة".. وتتجلجل الأرض لصرختها فيخرس المتكلّم، ويتنبه الغافل، ويسكن ظلّ الماشي، وأركان بيت تُهَدُّ وتُنشأ في رمشة عين وجلة..

"جمانة".. ويتلعثم الفصيح، ويسقم الصحيح، وكلمتها هي الكلمة، تُلزم الصّغير والكبير، ولا تسقط أرضًا أبدًا أبدًا..

"جمانة".. والقرارُ قرارها، والصّواب أبدًا- زعمت- لا يخطئها، ونظام الأفلاك في دفاترها، وقوانين الكون في دساتيرها..

"جمانة" الأسطورة الخالدة، ها هي ذي ذات نكبة في عهد الاستعمار- والنّكبات ليست دومًا حربًا، والمستعمر ليس دومًا مرتزقة- ها هي ذي تتأهّب للنّزوح.

منْحنية، بظهرها المقوّس، ورجلها المتورّمة، ويديها المرتعشتين، كانت تحزم أغراضها، وتحاول لملمة شظايا كرامة كانت مبعثرةً بين زوايا منزلها، واجمة شاحبة ممتقعة، ترنو إلى حجرتها بنظرات كسيرة مهزومة.. تتجرّع نُغَب انقلاب الحال وسوء المآل أنفاسًا.. توزّع بصرها الخاسئ الحسير بين

خردِ ملابسها، وأوانيها، وبين جدران حجرتها، تودعها بدمعها وافْتصاد قلبها.. تزحف ببطء.. تقلب نظراتها الخامدة في حسرةٍ ولوعة بين باقي حجرات مسكنٍ شهدَ على بطولاتها وانتصاراتها قبل زمن الانتكاسة.. كلّ لبنة من لبناته- لو استنطقوها- لحكتْ عن جوع وعري "جمانة" وأبنائها، واستغنائها عن الضروريات؛ بله الكماليات، وجهادها المسْتميت كي تطبق ذاك المثل الذي شاع بين ذويها: "آجورة في الحيط خيرٌ من جوهرة في الخيط"، فزهدت في الجواهر، وشيّدت عوَضَ الحائط حيطانًا، وعوضَ الدّور أدوارًا، ونافست جيرانها في التطاول في البنيان..

كخيزرانة كانت دارها بين دور الجيران.

ها هي ذي- يا للْحسرة- تلك التي كانت تهزم العواصف، تمضي؛ منكسة الرّأس، تجرّ خطاها المتثاقلة، عساها تكمل ما تبقّى من سويعات حياتها في منْأى عن فصول الخيبة وروايات الخذلان.

تصطدم عيون خطاها المنكَسرة بأطلال ابنها "يوسف" الواقف قرب الباب ينتظرها ليقلّها لبيتها الجديد.. كصنمٍ كان يتابع حركات رجليها البطيئة.. وعيناه الخانعتان الحائرتان؛ لم يستطعْ وضعهما في عينيها، ثمّ هي أيضًا كانت مُنحنية الرّأس مثله، كسيرةٍ مهزومة مذعنة مثله، فالتقت نظراتهما في الأرض، هي ترقب حذاءه الذكوري بأسفٍ على رحمها التي أنجبت ذكرًا

هزمَتْه أنثى تصغُرُه بعقدين؛ فلم تستطع أن تتوسّد رجولته وأن تحتمي به من براثين كنّتها؛ وهي تودع ما بقي في عمرها من سويعات، وهو يتابع حركاتها البطيئة الخائبة، وأرْجُلًا تجرّها فتكاد تسقط تحت وطأة حملٍ ناءت به يداها وآخر أثقل قلبها العجوز، غير مصدق أن تلك "جمانة"، وتلك خطاها، وتلك نظراتها الكسيرة العويرة التي كانت يومًا تنْهَدُّ من شزرتها الجبال.

خرس اللسان، وحدّد كلّ واحدٍ منهما حماه.. التقى الصمت بالصمت في نقطة تقاطع ظلّه بظلّ متاعها، وبرزخ بينهما لا يبغيان.. تعاتبه نظراتها، فيردّ على لوْمها بالعتاب، فتلك التي هزمته؛ هزمتها هي أيضًا فصارا شريكين في الهزيمة.

كلّ حكايا الهزائم والخذلان تتشابه.

- "اختيارك يا أمّي، وأنا كنت قد فوّضت لك الاختيار.."

الكُرةُ في ملعبها.

لودّت- لوْلا العهود والمواثيق بينها وبين الصمت- أن تصعدَ عينيها كي تحملق فيه مليًّا، ثمّ تصفعه.

أسعفَها الصمت، فهجمتْ من أجل الدفاع:

- "لو كنت كما الرّجال؛ لكنتُ اخترت لنفسك، ولما كلّفت أحدًا ينوب

عنك، ولأغرى جيبك وشخصيتك فاتنة الفاتنات، ولكنت انتقيت من المثقفة الموظفة أجمل البنات، لا أن تقبل بالبدويّة الصغيرة ذات اللّسان السليط.."

صفعة، وهدف في الشباك..

فهو حينما عزم على الزّواج، كان قد كلّف أخواته بالبحث له عن عروس، ولم يكن لإخوانه من بدّ- كما العادة- إلّا الإذعان إلى قرار أمّهم "جمانة" بتوفير مصاريف العرس ومهْر العروس. في حين تكفّل هو باقتناء السرير ومستلزمات بسيطة لغرفة نوم ببيت العائلة.

كمْ هي بسيطة الحياة في عيون البسطاء..

كانت مقابلاته الأوّلية مع المرشحات من صديقات أخواته ومعارفهن مُحْبطة ربّما لهنّ أكثر ممّا له، فسذاجته وبساطة تفكيره- رغم حصوله على شهادة ثانوية تخوّل عادةً لحامليها شيئًا من التميّز على الأميين، أو على أولئك السّذج الذين لم يفهموا يومًا كنْه الحياة الزوجية، ولم يكلفوا أنفسهم عناء سبْرِ أغوارها، ولم يفتشوا فيها عن شيء أعمق من ظمأ الجسد- لا تغري العديدات ممّن قابلهنّ بخوض التجربة، ولم ترْقَ لسقف تطلّعاتهن؛ خاصّة وقد كانت منهنّ الجامعية والموظفة والمثقفة، ففضلنَ الرّفض من أوّل لقاء، ولم تنجح محاولات أخواته في إقناعهن به ولا بشخصيته، فقد كان عنوان الدّار على بابها، ولا شيء كان يمكنه ستر المكشوف أو التّورية إلى حين. وقد

كاد رفضه المتكرّر أن يكون سببًا في جعْله يقرّر الإحجام عن الزواج، والكفّ عن تقبّل سلسلة من الخيبات المتَشابهة. لكنّه سرعان ما وجد نفسه مضطرًّا للإذعان لقرار أمّه، بل مرحّبًا بذلك القرار المحسوم بالارتباط بـ "حنان"، إحدى قريباتها المنحدرة من البادية.

كانت فرحتُه عارمة لأنه لن يكون مضطرًّا لأن يشعر بانكماشه وتضاؤله أمام تلك الفتاة البدوية الصغيرة التي لم تكملْ تعليمها المتوسط؛ كما فرضتْ عليه التجارب السابقة الفاشلة المتتالية..

كان منتشيًا لتأكّده من أن بساطتها وضآلة تعليمها وبعدها عن الحضارة ستريها إيّاه بغير صورة المسخ المنكمش الباهت الذي رأته عليها الأخْريات، فيكون بذلك في مأمنٍ من أن تعريه أو أن تكشف بساطة تفكيره وتفاهةَ أحلامه وقلّةَ ذات يده واعتماده في الصغيرة والكبيرة على إعانات إخوانه وقرارات أمّه "جمانة".

ترنّح من قوة الصفعة، ثمّ استفاق.

- "لقد اخترتِها بنفسِك يا أمّي لتكون تحت سلطتك وإمرتك. أردتِها خادمةً تسهر على الكبير والصغير، ومن دمك وبني عمومتك كي تقيم لك وللقرابة بينكما وزنًا.. وجعلتِها ورقةً رابحة لكي تكيدي باقي كنّاتك.."

هجمةٌ مرتدّة..

كادتْ تخرق عهدها، وتهدمُ البرزخ الذي بينهما، وترتع في الحمى لتوجعه لطمًا.

أوجعها صدقًا..

فقدْ كانت بالفعل مناسبة لجمانة- من غير سابق إعلان- لكي تكيد زوجة ابنها الأكبر، لا لشيء إلّا لأنها ذكية ومثقفة وموظفة، حينما ستضطرها لأنْ تلعن تلك الثقافة التي كانت تمنحها قيمة بارزة وتميزًا على زوجها الذي لم يكن أحسنَ حالًا من أخيه العريس، وتمزّق تلك الشواهد العلمية التي لم تنجح في جعلها من المقرّبات المؤتمرات بأمر امرأة متقلبة متسلطة تقيمُ مَن حولها تبعًا لهواها ولقانونها الخاص.

وحتّى وهي تستعدّ لاستقبال العروس الجديدة ببيتها، كانت تحاول إشعال غيرةِ كنّتها "القديمة"، وهي التي لم تتأخّر يومًا في تلبية طلباتها، ولم تسئ يومًا لها من قريبٍ ولا من بعيد، مكرّرة على مسامعها أنّ "الدّم للدم رحمة" وأنّ "الدّم لا يمكن أن يصير يومًا ماء" وأنّ "زواج القريبة سيجعلها دومًا من قلبها قريبة"، وستحظى بصحبتها ليلَ نهار تحت سقف واحد. وأنّها قبلت العيش معها حتى مِن غير طلب مشورتها، وأنها ستستمتع بتلقّي خدمتها، وسيكون بوسعها التلذّذ بكلّ تلك المأكولات الأصيلة التي ستتحفها بها،

وأنها ستكون تحت سلطتها هي. ولم تتورع من الصّدح بذلك لأمّ كنّتها حينما حضرت لتقديم التهاني والتبريكات بالمناسبة، ولم تخفِ افتخارها بذلك الزّواج الميمون، وتنبؤها بنجاحه من أوّل يوم؛ وبأنّ الترتيب المنطقي الجديد للكنّات؛ تصدر تلك التي تجمعها بها آصرة الدّم مع حيازة مرتبةِ الشّرف، وحصول الأخريات على ما تبقى من مراتب.

شهدَ شاهد من أهلها..

نزعت الخنجر:

- "اخترتُها من أقاربي أيّها المسخ الجبان المهزوم مهزوز الشخصية؛ لأصنعَ لك بين الجميع مجدًا وصرحًا تباهي به أترابك، وتشعل به غيرةَ إخوانك، لكنك- يا للْعار- ركعت لأنوثتها، واستمرأت تنمّرها، وغاضت رجولتك في رمالِ تسلّطها، وأقحمتني- رغمًا عنّي- في عراكِكما كي أنصرك في كلّ الأحوال وأستنقذ ما تبقى لك من كرامةٍ وماءِ وجه.. واسأل الدّواء الذي أصبحت تدمنه، وأطباء النّفس الذين اتفقوا على أن ضعف شخصيتك قد أوردتك المهالك.. خذلتني رجولتك ونخوتُك..لم تستطع إيقافها عند حدّها وهي تعريّني أمام إخوانك وزيجاتهم.. لم تأخذ حقّي كما كنت أنا أفعل.. لم تلزمها حدودَها وهي تواجهني بصلافة.. لم تعاقبها حينما رفضت إسعافي وأنا مريضة.."

حاصرته.. صدقًا قالت.

فما هي إلّا أشهر قلائل بعد أن ذابت شموعُ اللقاءات الحالمة الأولى، وارتوى عطش جسدِ يوسف الظامئ، حتى أصبح "الدّم" الذي قيل عنه إنّه لا يصير ماءً أبدًا، أصبح شلالات ماءٍ بارد تنقع "حنان" زوجَها وأمّه فيها كلّما احتاجت إلى ما تحتاج إليه النّساء عادة؛ فلا تجد في جيبه ما يشبع نهَمَها، أو كلّما طلبت منه طلبًا فأرجأ إجابتها إليه إلى حين استشارة أمّه، أو كلّما نشبَ خلافٌ بينهما فتدخلت جمانة لتنصر ابنها بحقّ وبغير حق. كانت تستأسد وهي ترى طللَ ذلك الفارس الثلجي يتهاوى أمام عينيها، وحبيباته تتناثر تحت شتائمها وعيونها المزدرية، فتستغلّ من جهة؛ ترنحه بسبب صدماته المتكرّرة من هول ما كان يسمع منها حينما تستغل المواقف لتشهِّر بخبايا ضعفه وتذيع أسرار بساطته وسذاجته بما لا يسعه معه إنكار ولا تكذيب، ومن فداحة ما يراه من ضعف في نفسه وقلة حيلة أمام تجبّرها وسلاطة لسانها. ومن جهة أخرى؛ كانت تغتنم خوفهم من شماتة باقي الكنّات، ومن الفضيحة ووصمة العار التي ستلحقهم من كلّ العائلة إنْ تسرّبت أسرار خلافاتهم المستمرّة، فيبادر يوسف المسكين إلى تنفيذ طلباتها لإرضائها، وتجد جمانة نفسها مضطرّة للتنازل من أجل تطييب خاطرها، وهي التي عاشت دهرًا معتليَةً عروش التجبر والتسيد لا تطاح لها كلمة، ولا يُعصَى لها أمرٌ أبدًا.

لم يدُرْ بخلد يوسف- للحظة- أنّ "حنان" ستخيب ظنّه وظنّ أمّه، وأن تلك الصّورة التي رسمها في خياله وهو يمنّي نفسه بدور البطولات أمام البساطة المفترضة في زوجه الصغيرة؛ سرعان ما ستضمحل لتعرّيه أمام نفسه، وتكشف مسخَه الباهت، وتجعل صدماتِه العنيفة، وخيباتِه المتوالية فيها، وذلك الصرحَ الذي شيده على أواس من ثلج؛ سببًا في طرقه عيادات الطبّ النفسي، وإكمال زهرة شبابه تحت رحمة المسكّنات، وعقاقير الاكتئاب، وتهدئة الأعصاب.

مَن كان يظنّ أن تلك البدوية الصغيرة ستواجه "جمانة" الأسطورة بما لم تستطع "المثقفة" مواجهتها به: من تسلطها على أبنائها، وتفضيلها بناتها على كنّاتها، وجعل الأمور تسير حسب هواها؟ وحتى في تلك المواقف الصّعبة التي تحتاج فيها امرأة مسنّة لذلك الحنو أو لتلك المساعدة الإنسانية التي لا يبخل بتقديمها الجيران والغرباء فضلًا عن الأقارب، لم تسعفها بها؛ وهي التي كانت تمنّي نفسها بزوجة ابن عاطلةٍ تخدمها وتكرمها وتفرش الأرض حريرًا تحت رجليها.

ثمّ ها هي ذي السّنون تتوالى دون أن تجعل "حنان" تعمل بمقتضيات اسمها فيحنّ قلبها على تلك المرأة التي طفق الزمن ينخر في قوتها وعنفوانها، ويعلمها أنّ فوق كلّ متسلط متجبّر؛ مَن هو أكثر منه تسلّطًا وتجبرًا.

استفاقَ من صفعة الحقيقة المُرّة.. استجمع كلّ مبادئ فلسفته الساذجة، ومنطقه الأرعن، وطفق يحلّل ويبرر:

- ".. أنا يا أمّي لم أخذلك؛ فأنا اليوم معها كما كان أمس أبي معك؟ أَوَ كان هجرك أو طلّقك أو حتى طردك حينما طردْتِ أمّه؟ أوَ كان شتمك حينما شتمت أمّه؟ تجرّع الصمت ليبقى شملَه مجموعًا، وكذلك مع زوجتي أنا فعلت.."

تبتلع ريقَها على مضض ومعه علقمُ الحقيقة، وبضع شويكات قذفها منذ قليل صدى الصّمت.

تشجّع وتقدّم أكثر من حلبتها.. رفع سنانه:

- ".. ثمّ هي يا أمّي لم تشتمك، فقط واجهتك بنفسك وتركت الواقع والوقائع تشهد عليك.."

وطعنةٌ أخرى.. جفّ حلقها ويبسَ لسانها..

- ".. ثمّ هي يا أمّي لم تطردك. أنت اخترت الرّحيل، فلا تحمّليها ذنبًا لم تقترفْه.."

خنجرٌ آخر.. نظراتُها ما زالت واجمة.. ليت صمته فقط يصمت.

– ".. ثمّ لم تعيّريني بتسلّطها علي رغم صغرها، فأنا يا أمّي كنت أراك، مذْ وعيْت، كلّما سقطت ذبابة في كأس حليبك، وأنت حينها مَن أنت؛ أهرقتِ كلّ الحليب وربّما عافت نفسك الكأس فتخلّصت منه، أو ليست الذبابة أيضًا صغيرة؟ فلم كانت تهزم قوتك ورباطة جأشك ذبابة، وتكبّدك خسارة حليب ربّما وكأس؟

– "ذبابة!! ألم تجد غير الذبابة مثلًا يا فيلسوف زمانك؟ واحسرتاه على بطني الذي أنجبك.. وامُصيبتاه في تعليمك وشهادتك.."

لم يستطع صمتُها أن يصمت، ولا أن يمرّر هاته الفلسفة الساذجة الخاطئة:

– "كنت أعلّمك أيها الساذج أنّ ما الذباب إلّا ذباب، وأنه إذا وقع على أنوفنا هششنا عليه، وإذا وقع في أكلنا رميْنا كلّ الأكل والآنية معه ولا نبالي.."

أفحمته..

لعلّه فهم مقصودها..

– "هل كان يجب عليّ أن أطلق "حنان"؟ وإن طلقتها، كيف سترفعين رأسَك بعدها في مجامع عائلتك؟ ووصمةُ العار التي ستلحقك من بني عمومتك؟"

جولةٌ رابحة، بل الضربة القاضية.

غرق الصمتُ في الصمت، وأُفْرِج أخيرًا عن خطاها.. جرَّت رجليها المتورّمتين تكمل المسير:

- "ولأجل هذا أزمعتُ الرّحيل. فاحمل عنّي، على الأقلّ، ما تستطيع حمْلَه.."

انحنى "يوسف" وفهمَ أخيرًا أنه كان عليه أن يحمل عن يديها المثقلتين متاعَها مذْ خرجت من غرفتها تودّع زوايا المكان.

استدارت جمانةُ ودمعةٌ ترقرقت في محْجريها، في نظرة أخيرة تودّع أركان بيتها، وتدفن فيه أمسَها التليد، وشبح ذكرياتها المريرة. تركت لها الجَملَ بما حَمل.. ها هي ذي تغادر البيت الذي عاشت به سنين بعدد شيْبات شعرها.. ترنو إلى حجرتها للمرّة الأخيرة بنظراتها المهزومة الكسيرة.. تودّعها بدمعها وافْتصاد قلبها.. تقلّب بصرها في حسرة ولوعة بين باقي حجرات مسكنٍ شهدَ على بطولاتها وانتصاراتها قبل زمن الانتكاسة.. تمضي؛ منكّسة الرأس، تجرّ خطاها المتثاقلة، عساها تكمل ما تبقّى من سويعات حياتها في منأى عن فصول الخيبة وروايات الخذلان.

- ٥ -

يومًا ما سيَعْلمن..

عام، عامٌ ونصف، بل عامان إلّا ثلاثة أشهر، ولم أجدْ ذاك الذي كنت أبحثُ عنه.. بل وجدت، أو ربّما لم أجد كلّ شيء.. ليس بعد..

وجدتُ نفسي وحرفي وبضعًا من أحلامي الموقوفة، وأفرجت عن أساريري وعن بسمتي وعنْ بهجة الحياة.. أصبحت أخيرًا أشبه نفسي.. لم تكتملِ الفرحة.. لنْ تكتمل.. إنّها الدنيا الخدوج.. ها أنا ذي أعيد ترتيب أوراقي.. أبني جسورَ العودة وأحتفي بميلادي خلسة.. لن يشاركنني فرحتي.. تحزنهنّ فرحتي.. لن يشاركنَ سعادة بُنيت على تعاستهن.. سيجاملنَني قطعًا.. سيبتسِمْن ربّما.. وربّما سيقهقهن، لكنهنّ لن يفرحن..

سيبكينَ في صمت، وسأبكي لأجلهنّ وسنخفي دموعَنا عن بعضنا، وسنزعم أنّنا نبتسم.. غيابُه فجّر مواهبهنّ وأحْزانهن، وجعل أفئدتهن الصغيرة تشيخ قبلَ الأوان، وقطاراتهن- من حينٍ لحين- تحيدُ عن السكة.. علمهن الصّمت.. علّمهن الصّخب..علمهنّ الشّغب.. علمهن كيف يقلنَ أنهن سعيداتٌ غير مباليات، ويكتمنَ في الأعماق ضجيجًا مشفّرًا.. تلتقي

عيناي الحالمتان بعيونهنّ المنهكة فيبتسمن.. ليتهنّ يفهمن.. أجهدت نفسي كي يفهَمْن، لكنّ الدرس كان فوق طاقة استيعابهن.

وردتي الكبرى مثلت مدّة دور العاقلة المتفهّمة، ثمّ ما لبثت أن تعبت.. نظرتْ لأحزاني وخيباتي السّرمدية فيه بعيني تلك الأنثى ذات السبع عشرة سنة، فثمّنَت قراري وشجّعتني عليه، وكانت لي نعم الصديقة وقت الضّيق.. لكنّها سرعان ما تاهت بين فصول الرواية حينما ظمئت لوجوده، وتضوّرت جوعًا لعاطفة لن يشبعها إلّا هو، وظلّت تبحث عن طيفه بين زوايا كتبِها، وفي خزانات ملابسها، وأمام باب مدرستها، وعند طبيبة الأسنان، وخلف الجدران، ووقت الطعام، وشهر الصيام، ويوم العيد، وعند كلّ أذان.. فلم تصطدم سوى بالخواء.

قرّرتْ يومًا أن تمزّق الرواية، وأنْ تعيد صياغتها بقلمها.. وأن تجعل نهايتها سعيدة كما تريد هي.. حشدتْ دموعها وحروفها لتكتب له قصائد الشّوق وتباريح الحنين.. تسأله أن يعود.. فلمّا طال صمته ورحيله، وقرّر أن يمزّق رسائلها، ويهزأ بقصائدها، ويعتب على لهفتها، ويخون توسلاتها، ويلبسني بين هذا وذاك ألف تهْمة، ويحمّلني مسئولية ما حصل، ويذكرها بأنّه قد فتح بيتًا جديدًا، ولا يسمح لها بتعكير صفوه؛ تاهت مرّة أخرى،

فقرّرت أن تكفكف دمعها، وأن تخون حرفها، وأن تبثّ أشواكًا من الـ "لا" في مروج خواطرها، وفي القلب ألفُ لا لتلك الـ "لا"، لكنه العناد:

في الأمس القريب
كنت أناديك
وأناجيك: أبي، متى تعود؟
في الأمس القريب
كنت أجفّف مدامعي
وأجثو أمام الله
وأرجوه أن تعود..
في الأمس القريب
كنت أحلم بغدٍ مشرق
بالغدِ السعيد
حين تعود
في الأمس القريب
كنت أتوسّل إليك
وأرجوك أن تعود
أمّا اليوم

اليوم أحذف السؤال

"متى تعود؟"

اليوم

أجفّف مدامعي

وأطلب من الله

ألّا تعود

اليوم

أحلم بغدٍ جميل

وشمس مشرقة

أحلم بعالم لست فيه موجودًا..

اليوم

أرجوك فقط ارحل

لا أريد إلّا أن تذهب وألّا تعود

اليوم

أجثو أمام الله

وأدعوه في السجود:

"أرجوك ربي

لا أريده أن يعود.."

نفثتْ ألَمَها وطردت طيفه الذي لم يكن يفارقها، لكنها ما لبثت أن ضمدت ندوبَها، واقتلعت جراحها المعشوشبة، واستمطرت له عوَضَ العذر أعذارًا.. لسببٍ ما باركت زواجه، ولنفس السبب عذرت تخلّيه عنها حينما جاعت لأبوّته ولرجولة تحميها وتسندها وتنثر حول قلبها المعشوشب أزاهير المحبة وورود الحنان.

وانتقلت إلي.. كان الدّور علي.. تكيل لي في صمتٍ تهمًا بعدد خيباتنا فيه، وتحكي لي عيناها ذاك الذي عجز لسانها عن البوح به.. تشاكس كي تنبئني أنّها قد تكون سببًا في تعاستي لأنّني كنت يومًا لتعاستها ذاكَ السبب.. ومرّة أخرى تحشد حروفها، ويسيل الوجع على دفترها.. ينسج لأمّها الأكفان، ويواري جثمانها، ويصلّي عليها صلاة الغائب، ولا يبقي لها من ذكراها سوى حسرة أن كانت لكلّ من حولها- دونها- أمًّا.. ينامون بين أحضانها، وتقيهم بردَ الطرقات، وتعبر بهم بين الزحام.. تطرد عنهم الخوف والألم.. ماتت أمّها.. قَتَلت أمّها.. ليس من أحد تناديه "ماما".. وتمضي في نقش الوجَع عبر سطور أقصوصتها لتغلقها على وقع سقوط السماء، وانشقاق الأرض لتلك العبارة البسيطة المتجذرة في سراديب الألم:

"لَمَ كلّ الأطفال يردّدون كلمة ماما، بينما أنا ليس لي أحد أناديه بهذا اللقب؟"

للحْظة صارت يتيمة عبرَ حرفها مرّتين.. أقبرتنا ولا أدري إن كانت ستحْييني كما أحيته.. لا أدري إنْ كان في قاموس حرفها بعث ونشور، أم حساب وعقاب فقط.. لا أدري إن كانت ستستمطر لي تلك الأعذار التي استمطرتها له.. أم أنّها ستبقى ما حيَتْ يتيمةَ الأمّ تبحث عن الملاجئ وتقيم لها سرادقات العزاء.

.. في ألواح رسم وردتي الثّانية طبيعة خضراء جميلة متكررة.. تفاح أحمر يتدلّى من الأشجار، ونهر يتوسّط الجنان، وسماء صافية نقية لا يشوبها سحاب.. تلك صورة حياتها قبل أن تلقب بطفلة الطلاق.. فساتين ورديّة وبنفسجية لأميراتٍ من غير وجه.. كراريسها تعج بمغامرات مسلّية، وقصص حزينة، وخواطر تجمع بين المسلي والحزين، تكبر سنواتها الثّنتي عشرة بعشرات السنين .. كبرت زهرتي.. صارت ترسم وتزدانُ الحروف على كراريسها بوشاحات الحزن.. هرمت زهرتي.. وفؤادها المرهف الصغير.. ذلك الصندوق الأسود الذي يحتفظ بتفاصيل رحلتها مع الألم.. لا أحد يجرؤ على فكّ شيفرته.. انطواؤها.. كلامها المقتضب، لا يمنحني فرصة قراءة ما بين سطوره.. لكن عينيها الواسعتين العسليتين الجميلتين تشي- على كلّ حال- بها وبذاك الحزن الذي تكابد لإخفائه.

ليتَها تسأله.. أو تسألني.. ليتها تلومُه أو تعذلني.. ليتها فقط تتكلم.

.. عصفورتي الصغرى التي كانت بالأمس القريب تنتفض لسماع صلصلة المفاتيح، وتظلّ واقفة قرب الباب تنتظرها أن تفتح فلا تفتح، باتت تعلم مرادفات الغياب وقواميس الرحيل.. اقتنعت أخيرًا أنه لن يأتي، وأن مفاتيح الجيران لها أيضًا صلصلة.. لا أدري إن كانت قد فهمت.. إن كانت حقًّا اقتنعت.. لكنّها لم تعد تنتفض.. وحتى خوفها كلّما حلّ المساء من المساء ومن ظلام المساء رحل، وذلك المجهول الذي كان يطرق الباب فلا تسمعه إلّا هي؛ لم يعد يأتي.

كلّما رجعتْ من زيارة أبيها مساء الأحد ألّفت قصة جديدة. فمرّة تكتب سيناريو جديدًا لقصّتنا فتجعلني أتزوّجه، وتزوّج زوجته الجديدة بأحد معارفنا.. تبتسم لعبقرية حلّها، وتطفق تستعطفني أن أوافق.. ومرّة تحكي عن استئمانه لها على تبليغ سلامه إليّ، ومرّة أنه غير غاضب منّا، وبأنه سيصلّي العشاء ثمّ يعود، فتستعطفني أن أتركَه يدخل، وأن أكفّ عن غضبي منْه.. أضمّها إلى صدري، وأتحاشى النّظر في عينيها كي لا تقرأ ألَمي، ولا ترى سيلَ دموعي.. أغيّر لها الموضوع بالحديث عن الغد، وعن المدرسة والصّديقات.. أتحايل عليها إلى أن يهجم الكرى على عينيها الخضراوتين الجميلتين، وأمضي ليلي أنزع تلك السكاكين التي غُرست في صدري من غير سابق موعد.

باغتتني عصفورتي ذاتَ صمتٍ بعبارة مقتطّعة خارج النص، لا أدري إن كانت اقتبستْها من الرّسوم المتحركة، أو تعلّمتها في الروضة، أو تلقّنتها- هي أيضًا- من الحياة ومن قسوة الحياة:

"أبي شرير"..

كيف يا ابنتي أشرح لسنواتك الخمس أنّ الشرّ الصريح شرّ واحد، أمّا الشرّ المتخفّي فشَرّان ورذيلتان وجريمتان؟ كيف أنفي لك يا ابنتي، أم كيف أثْبت؟ وأنا التي عشت دهرًا أزرع بين حقول شروره وألغامه وردًا وكرْمَ زيتون وأشجار زيْزفون.. أحتمي بها من شظايا نفسه المكسورة حينًا، وأهرب إلى أعلى غصن؛ أستظلّ به من شمس الهجيرة التي كانت تلفحني.. وأتنسّم شذى الورد كلّما ظمئت روحي للعبير.

ويمضي يومٌ ويومان، لتفاجئني مرّة أخرى بفلسفتها في تلقي الرحيل، حينما أطلعتني على خطّتها كي تحتمي من ذلك التفاعل المؤلم لصقيع غيابه ولهيب شوقها له.. أخبرتني أنها كلما تذكرته شغلت نفسها.. خلال النّهار بالرفاق والمدرسة والعجين والألوان، حتى إذا ما باغتها حنينها إليه مساء، أشغلت نفسها وأبعدتْ عن عينيها ذكراه حتى النوم كي تلتقي به في الأحلام.

كبرت يا عصفورتي رغمًا عنك، وصارت لك فلسفة في الشوق وفي الحنين وفي التّناسي.

معذرةً يا حبيبتي، كنت أتمنى لوْ كفيتك شرّ الخطط، وهمّ الأشواق، وسياط الوحدة العاتية والخوف المضني.. كنت أتمنّى لو استطعت إتمام المشوار فقط لأجل عيونكنّ.. لكنّ يومًا ما ستعلمنَ معنى أن تصبح تلك التي كانت تعيش الحياة بأدق تفاصيلها؛ مضطرّة للعيش بمحاذاة الحياة.. معنى أن تعيشَ مهاجرة تبحث لها عن المَرافئ؛ فلا تجد غير الصخور تقبع بين زواياها تنتظر أن تنتهي الرّواية وفصول الرواية.. معنى أن ينفذ الزاد، وتنقطع بها السبلُ إلى رجُلٍ لا تروم دون قلبه المساكن، فيتنكر لوفائها، ويستغلّ ضعفها، ويرمي بتضحياتها عرض الحائط.. فتجد نفسها مضطرّة لانْتشال روحها من موتٍ بات وشيكًا لتعود للحياة ولتفاصيل الحياة.

حتمًا، يومًا ما، ستعلمن.. وستفهمن.

- ٦ -

وحدَه لا يدْري..

وحدَها عيناها الحالمتان كانتا تشيان بحزنٍ عميق لم ينجح بريقهما الأخّاذ في إخفائه.. وحتّى ذلك الشحوب الذي بات لا يفارقها، لم يكن ليشي بسنّها الذي جاوز الثلاثينيّات بنيّف، فكان ذوقها واهتمامها بشكلها وحرصها على أن تبدو في شكل أنيق؛ يفلح في خداع كلّ مَن خمّنوا أنها لم تتجاوز منتصف العشرينيّات.

كانت تحظى بحبّ واهتمام زميلاتها في العمل، وتسعد لتعليقاتهن على ذوقها وعلى طيبة قلبها، ولكم كانت تسعدُ لطلب إحداهنّ مرافقتها لاقتناء لباس أو حليّ، وتنتشي وهي تصفُ لهنّ المتجر الذي منه قد اشترت ثوبها، أو وهي ترشدهنّ إلى خياطتها التي باتت خياطة الكثيرات منهن.

زيارة عائلة زوجها لها ببيتها تبدأ في الغالب بتراشق نظرات الغيرة والحسد، وهُنّ يلاحظْن- رغم كونها موظفة ونصف يومها في الخارج- إبداعَها في ترتيب البيت، وبراعتَها في حسن استقبالهن، وتفنّنها في الاهتمام ببيتها وبأطفالها وبإعداد موائد الطعام.. الطيّبات منهن لا تتحرجن من إبداء رأيهنّ بخصوص الشراشف الجديدة، أوالملاعق والسكاكين والشّوكات

المنتقاة بإتقان، وقد يأخذ الفضول إحداهن فلا تتورّع من دخول حجرةِ نومها الخاصّة لترى الستائر الجديدة أو غطاء السرير الذي لا يمكن إلّا أن ينمّ عن ذوقٍ رفيع.. بل قد تطلب إحداهنّ مقادير بعض الأطباق؛ فتسارع في فرحٍ وتواضع- على غير عادة بعض النساء- بإعطاء كلّ تلك التّفاصيل الصغيرة التي مِن دونها قد لا ينجح صنع الطبق.. في حين تسرّ المتكبّرة الحاسدة منهنّ إعجابها، وقد تبطن الإعجاب وتصدح بوقاحة لا تفسّر إلّا بالحسد؛ أنّ ذاك الطبق أو تلك الحلوى لم تكن بالقدر الكافي من الإتقان، فتسرّها في نفسها ولا تردّ عليها.. وكم مرّة باغتتْهُن وهنّ يأكلن خِلسة؛ وقت خروجها من غرفة الاستقبال من ذلك الطبق المحكوم عليه ظلمًا وزورًا بالفشل.

كم كانت تسعد لمثل هاته اللقاءات عَساها تشبع كبرياءً جائعًا لامتنان زوج لا يخلع عن عينيه النّظارة القاتمة للامبالاة والعنْجهية، فتستغل فسحة الزّمان والمكان للنّهل من ثناء أمّه عليها أمام بناتها وزوجات أبنائها، فتنتشي لتعليقاتها اللطيفة الدقيقة، وتفتخر في أعماقها بتلك التعقيبات التي لا تملها أنثى.

وحدَه زوجُها لم يكن يريدُ رؤية شيء من ذلك، ويصرّ على أن أفضل ما تجهد نفسها في صنعه من طعام شهي، وحلوى لذيذة ومعجنات، وكل تلك

الأصناف التي تعجّ بها كتب الطبخ ومنتديات النساء؛ يُصنع بالرِّجل وبأعينٍ مغمضة، لذلك فهي لا تستحقّ ثناء.

كانت تعيش الحياة بكلّ لحظاتها..

وكان يعيش على هامش الحياة..

كانت ترى الإبداع في المنديل المطوي فوق المائدة، وفي الملعقة والسكين، وفي الشّوكة والكوب.. في الصحون التي تحاكي بعضها في الألوان، وتتنوّع أشكالها من وجبة إلى أخرى، في المطبخ المنمق بالستائر.. في اللّون الأخضر الفاتح الذي جعلته لونَ كلّ أواني ومناديل مطبخها.. في الحمّام المزيّن بالزرابي والورود.. في البراد النظيف المرتب المملوء بالقوارير الملونة.. في تسريحة شعرها وتفاصيل ملابسها العصرية الأنيقة داخل بيتها، في نظافة أطفالها واختيارها ملابسهنّ بدقّة.... في الخاطرة التي تنفث فيها ألمها.. في عطره الذي تنتقيه له بنفسها.. في ألوان الجوارب التي تحاكي ملابسه، في القميص المكوي في دولابه.. في أحذيته التي كانت تمسحها له بنفسها.

.. وكان يؤمنُ بتلك المقولة التي أدمنَ الكثيرون استعمالها: "لا شكر على واجب".. فما هي إلّا أنثى تقوم بالواجب الموكل لها، فعلام يكلّف نفسه الشّكر أو الثناء؟ ولِمَ الامتنان لمخلوق إنّما وجِدَ لإسعاد الزوج والسهر على راحته!!؟

كانت فلسفته في الحياة، أنّ الثناء وإظهارالامتنان يورث المرأة التسلّط والغرور والدّلال، ويجعلها تشعر بأكثر ممّا يجب أن تكون عليه..

ويا ليتَه جعل فلسفته التي آمن بها؛ مبدأ له في كلّ حياته ومع كلّ النساء، فقد كان يوصي أزواج أخواتِه بهنّ خيرًا، ولا يتوانى في الثناء عليهن أمام الجميع كلّما تطلب الأمر ذلك، ويتدخّل للصلح بين أخواته وأزواجهن فلا يألوا جهدًا بالنّصح "لهم" بالاهتمام بـ "هنّ" وبمتطلباتهن وبضرورة فهم نفسانيّة المرأة.

وحدَهنّ أخواته كنّ نساء..

كم هو مؤسفٌ أن يضطرّ الورد الفوّاح أن يصدح: أنا لي عطر.. كم هو محزنٌ أن يضطرّ لأن يستجدي مَن يسقيه ويرعاه كي لا يذبل.. وأن يقنع مَن حوله أنّه لا يتدلّل.. إنّما السّقيا وسيلتُه للحياة.

كان ييئسها من ودّه، ومِن تلطّفه، ويقنطها من رحمته واهتمامه. وكم مرّة اعتبرَ اهتمامها به نوعًا من التسلّط الذي تتقنه النساء، فأصرّ على استعمال جوربٍ أزرق مع سروال زيتيّ وقميص رمادي لا لشيء؛ إلّا لأنها من نبّهته أن ألوان ملابسه متنافرة، وأنّ دولابه يعجّ بثياب قد تفي ألوانها بالمراد.. ولأنّه ليس من أولئك الذين يسقطون في حبائل النساء ومكائدهن، فقد قرّر الذهاب في زيارة عائلية بحذاء قد كساه الطين؛ لا لشيء إلّا لأنها طلبتْ منه

أن يغيّره، فلمّا أصرّ على ارتدائه طلبت منه أن ينزعه حتى تتولّى تنظيفه، فما كان منه سوى أن صرخ في وجهها في تَذاكٍ: لن أسمح لك بتمرير رأيك عليّ، سأخرج به رغمًا عنك.

.. ولأنّها سئمت من انتظار الذي لا يأتي..

.. ولأنّها من تلك النساء اللاتي يحملنَ بين ضلوعهن قلبًا من رقّة وشرايين من كرامة وأوردة من إباء..

.. ولأنّ كلّ فنونها في تطويعه وجعله يتفهّم أنوثتها ويشبع عاطفتها الجوعى للمسةِ حنان وكلمة امتنان قد فشلت..

؛ أعلنت يومًا انسحابَها في صمت، وابتسمت في أعماقها في زهو:

"هو لا يدْري.. لكنني أنا أدري."

- ٧ -

بطلةٌ خارجَ فصول الرّواية

بقايا حلم منفوشٍ وذكرى وجسدٍ أنار عمرًا دربَك واحترق.. وخيبات بعدد الصّباحات والمساءات في ذلك الدرب الطويل..

ستّ سنوات يا سيد الجراح المضمخة، أستسلم لطيفك وعطرك ونحْنحتك.. لعزف شراييني حينما تصلصل بالباب مفاتيحك.. للخوف حين تغيب.. للساحات المصفوفة في انتظارك.. أرسم لك ملامحي فوق كفّك وفي كتبك وبين ثنايا قميصك.. ألقّنك حروف اسمي، وأعَرِّفك جمال اسْمي، وأجعلك تشتَمُّ عبير أنفاسي لتذكرها.. فلا تذكرها.. ألوّن لك أحلامي، وأعطّر لك أيامي، وأكتب لك كلّ تفاصيل عنواني كي لا تتوه.. فتأبى إلّا أن تتوه.

وستّ أحلام كقرعِ الموت في ليلٍ بهيم..أكتب قصائد المستحيل، أستنشق الأوْجاع وأبتلع الخذلان وأرضعُ الوحدة، فأشرع أبوابي عسى ومضة من طيفك تقتحمها.. فلا تقتحمها.. أعجن الكحل بمساحيق النساء، وأصنع منها فطائرَ ألتهمها ويلتهمُها كلّ مَن يراها إلّا أنت.. تنْصب لفؤادي الكمائن، وتعدّ مذابحه وتبرئ نفسك من دمي.

صباحاتي كمساءاتي.. وكلّ صبحٍ كالذي قبله.. وكلّ ليل مثل الأمس..

يتسلّل الصبح ليوقظني كما كلّ يوم لينتشلني من سحاب بتّ أغزل فوقه أحلامي التي لا تأتي.. أرتّل تعويذة الصباح، وأمسح دمعة باتت على خدّي.. مثلي تحلم بالغدِ الأفضل.. مثلي تحلم بالذي لا يأتي.

كوبُ حليب وخبزٌ مشويّ، وأنتظر- مثل الأمس- عسل الكلمات كي أغمس خبزي.. فلا تأتي مثل أمس سوى بضع رصاصات وقنبلات، تصبّ العلقم في كأسي.. وانتهى الصّباح بين دمعة وجراح كما الأمس.. كما أمس.

الخبزُ مصنوع في البيت كما تحبّ.. أصناف الطعام التي تحبّ.. فأنا مذ رأيتك لا أطبخ إلّا ما تحب، ولا آكل إلّا ما تحب، ولا ألبس إلّا ما تحب.. وأنتظرُ- مثل أمس- لمسةَ حنانن أو حرفَ امتنان.. فلا يأتي سوى قلم أحمرُ ومدفع ينسج في حَبَكٍ رمسي: "لِمَ لمْ تفعلي؟ لمَ فعلت؟".. هكذا مثل الصّبح.. مثل أمس.. ويضيع الزّوال بين دمعةٍ وخيال كما أمس.

وستّ أخرٌ عجافُ لا سمان تسبقها، سنبلاتُها الخضر التَهَمتهنّ اليابسات.. ليلي طويل طويل.. يمتصّ في وجع الكرى من عيني، وتعصر حلكتُه جسدي الكليل.. فأبيتُ بين دمعة ووجع، أنتظرُ حلمي العليل.. أرقب الصّبح الذي لا يأتي.. أرقب الحلم الذي لا يأتي.

إلى متى ستظلّ تعصر أيّامي؟ تنسف أحلامي؟ تئدُ على شفتي كلامي؟

إلى متى سيظلّ يراودني حلمي الذي لا يأتي؟

إلى متى سأظلّ أنتظر الذي لا يأتي؟

ضجيجي يصمّ أذنيك، عويلي يقتحمُ باحةَ شعورك الخامد المتبلد.. يعرّيك..

.. تحمل حقائب هجرتك تهدّدني.. وتخيّرني بين أن أموت مرّة أو مليون مرّة.

ألوّح في السماء برايتي البيضاء.. أرجم الحرفَ النّدي.. أمسحه بممحاتك المسْتخفّة.. أقصف دفاتر بَوْحي الحزين، وأمزّق كلّ الخرائط وكلّ الدروب وكلّ البوصلات وكلّ العناوين التي لم توصلني يومًا إلى سراديب شريانك.

وأختار أنْ أموت مرّة، فحرب الطرقات إلى قلبك استنزفتني.. وأنا لم أعدْ أطيق الحروب.

أو كنت وصلت؟ ربّما، لكن تلك الدروب المتشعبة في مشوار فؤادك طردتني فصرت بطلةً خارج فصول الرّواية.

ها نحن نتشابه الآن.. كلّ حكايا الرّحيل تتشابه.. وكلانا بطل خارج النّص.

عدّ سنواتي يا سيّد الجراح، ستّ وستّ وستّ.. هي إذًا ثماني عشرة.

ماذا بقي لي بعد الثّماني عشرة؟ غير حَنوطٍ وكفنٍ وقبر وصلاة غائب!!

ذلك قدري؛ أن أسكن لَمَن اختار دونَ روحي المساكن، وقرّر أن يخمد وميض عينيه فقط ليشبع نزوتَه في ممارسة العمى.. في أن يراني فلا يراني.. أو أن يراني كسيحة.

ذلك قدَري، أن يسكنه جنيّ الامتلاك فيتركني رهينةً في قفص تتساقط فيه أوراقي، ويغيب عبقي في نتَنِ التجاهل واللامبالاة.

لم تقطف الوردَ إن كنت لا تحسن طقوس استنشاق العبير؟ وهل رأيت يومًا وردًا يوضع في الأقفاص؟

لوْ كنت تنشّقْت روحي وتنسّمت عبَقَ أعماقي؟ فما الجسد إلّا تفاصيل صغيرة مهمّتها حمْلُ الروح.. ما الجسدُ- يا عاشقَ الجسد المختبئ بين تفاصيلِه لاهثًا وراء رُواءِ ما لا شبع لوارده- إلّا زائرٌ راحل، كأزاهير البرتقال؛ تحلّ حين يطلّ الربيع، ثمّ ما تلبث أن تتساقط ويتوارى عطرها وتدوسها الأقدام.. ماذا ستفعل حينما يأفُلُ سحري، وتعجزُ السنون جسدي، وترسم التّجاعيد أخاديدها على الخدود؟ ماذا ستفعل حينها وأنت ترى تفاصيلَ الأنوثة وسحر الأنوثة قد عاثت فيها رياحُ الخريف؟

ستمضي عمرَك إذًا متنقّلًا بين الأحضان مرتحلًا بين الأجساد، فندى الربيع لم يدمْ لأحدٍ يومًا، وعواصف الخريف لا تختار.. تقصف كلّ الأجساد وتهزم كلّ الأجساد.

لو كنتَ عشقت روحي؟ فالأرواح لا تشيخ ولا تشيب.

لو كنتَ عجَنْتني بتفاصيل عروقك، وبسطتَ لي بين دمك وأديمك فرشي لما تركتني بلا وطنٍ أهاجر سرًّا بلا تذكرة ولا جواز سفر، أو أطلب اللّجوء السياسي.

لَمَا تركت الورد يهاجر كما تهاجر الطيور كي لا يموت.

ثمانية عشر خريفًا..

فماذا بعدُ يا رفيقي؟

فالوردُ قد مات على صدري.

وأخطأ الربيع

طريقي..

وأوراق الخريف التي سقطت..

قدِ امتصّت في وجع

بريقي..

المدّ قد عراني؛

والجزر قد نفضَ عنّي

جماني وعقيقي..

ماذا أهديك بعد يا رفيقي؟

فالرّبيع في صدري

قدْ غرق

في وادٍ سحيق

والورد قد ذبل على نحري

وأخطأت أطياف روحك

طريقي.

- ٨ -

أرضُ الشّوك

لم يكنْ له من حلمٍ سوى أن يمتلك أرضًا ومعولًا، وأن يستطيع أن يمارس هوايته في تحويل خرائب الشّوك تحت ساعديه- بقدْرة الباري- إلى بساتين خضراء يانعة تسرّ الناظرين.. نبات أخضر وآخر أحمر وآخر أصفر، وآخر بلوْن يديه السمراوين.

كان "الغريب" غريبًا حقًّا.. حينما ذاع اسمُه بين أرجاء القرية ذات خريف منذُ سنوات؛ نازحًا من تفاصيل الجراح، ظنّ الكلّ أنّما هو لقب ألبسه نفسه لأنّه كان مهاجرًا، ولم يعلم الناس أنّه اسمه الحقيقي إلّا حينما طلب منه المأذونُ بطاقته الشخصية يومَ زفافه، ليعلموا بعدها من زوجته أن أمّه- رحمها الله- مَن سمّته تيمنًا بأحد الأولياء الصالحين في قريته بضاحية من ضواحي عنابة، كان قد نزح إليها غريبًا، وعاش بينهم غريبًا، ومات موتة الغرباء؛ فسمّاه أهل القرية "الغريب"، ولم يُعرَف له اسمٌ حتّى مات إلّا ذاك.

كان أهلُ القرية يحترمون ذلك الغموض الحزين الذي يلفّه، وكلّ ما كانوا يعلمونه عنه أنّه قادم من ذلك البلد الشقيق "الجزائر"، وأنّه مخلص، أمين وأنّهم يحبّونه.

كان ساعداه المفتولان وإخلاصه في العمل كلَّ رأس ماله حينما جاء إلى تلك القرية النائية يسعى.. فتهافت المُلّاك على ائتمانه على أراضيهم.. وزوّجه رفاقُ دربه من "صفية"، تلك الفتاة اليتيمة التي ألجأها اليتم والوحدة إلى أن تعيش خادمةً في بيت شيخ القرية عمها. فامتزج حبّها في شراينه بصوت المِعْول يشقّ الصّخر فيخرج الخبء بقوّة قدير، وبرائحة التّربة النّدية، وبشذى قطرات الأمطار.

كان يقضي ليلَه مع ذلك الحلم الغريب المتكرّر الذي ما يفتأ يراوده، فيرى فيما يرى الرّائي أنّ رجلًا وقورًا شديد بياض اللحية ناصعَ الثياب يسلمه صندوقًا مغلقًا.. يحاول فتح الصندوق، لكن مِن غير جدوى، يستدير ليسأل الشّيخ مفتاحه؛ فلا يسمع غيرَ عويل الرياح، وغمام أبيض كثيف يعبر الخواء.. حينما يستفيق، يطارده حلمُه الغريب فيحاول- من غير جدوى- أن يعبر تفاصيله الصغيرة. فيتناساه بعمله الدءوب في الحقول، وبأمنياته الصّغيرة الجميلة بأنْ يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن يطعم "صفية" من ثمراتٍ سقاها بعرقه المنْهمر من جبينه، ومِن بين ساعديه القويين المفتولين.. يعيد حساب دريْهِماته التي أخذ على نفسه عهدًا بجمعها كي يحقّق حلمه.. ويمضي ما تبقّى من يومه يرتشف فنجانَ قهوته ويعلّم "صفية" القراءة والكتابة وبعضَ سور القرآن القصار، ويشنّف سمعها ببعض أبياتِ شِعْر

كان يحفظها.. فتنصتُ إليه باهتمام، وتطلب منه في كلّ حين أن يردّد لها تلك القصيدة المحبّبة لها من شِعْر امرئ القيس، فينتشي لطلبها.

أجـارتنا إنّ المـزار قريـــب وإنّي مقيمٌ ما أقـــام عسيب

أجـــارتنا إنّ الخطـوب تنوب وإنّي مقيم ما أقـــام عسيب

أجـــارتنا إنا غريبـــان ها هنا وكلّ غريبٍ للغريب نسيب

فأن تصـلينا فالقـرابـــة بيننا وإن تصْرمينا فالغريب غريب

أجـارتنا ما فات ليس يؤوب وما هو آتٍ في الزمان قريب

وليس غريبًا مَن تناءت دياره ولكنّ مَن وارى التراب غريب

وكأنّ تلك الأبيات كتبت لتخاطبها.. لتذكرهما معًا بغربتهما..

أصبحت "صفية"- لكثرة ما أنشدَ لها هذه القصيدة- تحفظها، لكنها كانت تحبّ أن تسمعها من صوته الشجي، فتدمع عيناها وهي ترى مؤقتيه تغرورق في دموع هي بالتأكيد نفس دموعها.. فنفس الغربة قد جمعتهما، ونفس الحكاية هي حكايتهما.. ولربّما ذاك الذي جعل روحيهما تتعانقان وتكتبان أسطورةَ عشقٍ في زمن الجفاء والخيبة والخذلان.

تلك القصيدة- بالذّات- كانت تذكّره بذلك الذي كان يجهد نفسه كي لا يبوح به مذْ حطّت رجلاه بالقرية كي لا ينكسر.. بغربته حين ولد لأب

اغتيلَ قبل أن يستطيع هدهدَتَه أو نغنغته.. ولأمّ ماتت بورم لم تُجْدِ معه فنونُ الطبّ، وهو لم يكمل بعْدُ ربيعه السّادس، فألجأته الحياة إلى عيش الغرباء، متنقلًا بين الأحضان وبين الأوطان، حضن يأويه وآخر يُجْليه.. إلى أنْ رمت به رحلةُ المكابدة إلى أحضان صفية، فاتّخذ من روحها مسكنًا، ومن حضنها وطنًا.

.. كان الشّفق الأحمر يبعثر آخرَ خيوط شمس ذلك اليوم من أيام حزيران الحارّة.. يطردها فتلملم حقائبها حسيرة كسيرة.. تجرّ خطاها في صمت لتغادر الوجود، وحمامة فوق سطح بيت تشجن، ووريقات السّدر ساكنة لا يحرّكها نسيم، وأغصان عوْسَج مقوّسة كالعرجون القديم، وتربة الحي السّاخنة تلفح الصّخر والشّوك، ورجلي "الغريب" الحافية القادم من الغدير، وعتبة باب بيت "العمّ إبراهيم" الخالية منه منذ أمس ومن جلسته بصحبة مذْياعه رفيق وحدته، كمسافرٍ ينتظر بمحطّةٍ قطارَه الذي تأخّر.. أو كمن ينتظر حبيبًا عائدًا من رحلةٍ سحيقة.. وحده ذاك البريق المنطفئ في عينيه ورأسه المنكّس كانا يشيان بأنّه لم يكن ينتظر إنّما كانت تلك وسيلته لمقاومة رعشة الوحدة بعد انتقال زوجته "رحيمة" إلى الرفيق الأعلى، واختيار أبنائه الأربعة النّزوحَ للمدينة لإكمال تعليمهم ومزاولة وظائفهم بعد التّخرج.

استفزّ "الغريبَ" الصمتُ المطبقُ على عتبة البيت؛ فمضى يتفقّد "العمّ إبراهيم".. كانت الشبابيك- كما أمس- مغلقة، والباب الذي اعتاد أن يراه

موارَبًا كان موصدًا.. والحمامة فوق سطح البيت تنوح.. اقترب من البيت الموغلِ في الصمت.. رائحةٌ تشبه اللاشيء تنساب من بين جدران المنزل ومِن تحت الباب، ومن بين شقوق الشّبابيك المهترئة.. يقترب من الباب.. تتضمّخ جدران البيت بلوْن الشفق.. يطرق الباب.. يتصاعد عويل الحمامة.. يطرق ثانية.. ينمو ظلّه تحت شظايا العتمة الوليدة المنتشرة فوق الآكامِ وبين غصون شجيرات العوْسَج.. يطرق الباب بشدّة.. تطير الحمامة.. ينتشر صدى طَرَقاته المتتالية بين أكوام الشوك المبعثرة هنا وهناك.. يكسر الباب.. يهجم الليل المحدق.

فجأة، صار المكان موحشًا.. يدخل.. يتقدّم الهوينى.. خوفٌ رهيب يسري في أوصاله، ورعشةٌ تصطكّ لها أسنانه، وقطرات العرق تتلألأ في جبينه وتنحدرُ جداول على ظهره.. كان واقفًا على بُعْد بضع خطوات من الموت ومن رهبة الموت.. "العمّ إبراهيم" مسجّى على الأرض ميتًا. اقترب من الجثّة المستكينة بخطى مرتبكة متعثرة.. صوتٌ سحيق خافت منبعث من مذْياعه الذي كان رابضًا تحت ذراعه الأيمن.. كان هو أيضًا يحتضر.. يرفع كفّ إبراهيم المتصلبة.. كانت كقطعة ثلج، وعيناه الشاخصتان كانتا عالقتين في الخواء.. أصاخ إلى ذلك الصوت الخافت النديّ المنبعث عبر أثير إذاعة القرآن الكريم من ذلك الخل الوفي الذي رافق صاحبه حتى في لحظاته

الأخيرة، وبات يحرسه في ليلتِه تلك المستوحشة القارسة: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ تلألأت دمعة في مؤقتيه ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ تدافعت دمعة أخرى ﴿وَ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.. امتدّت يدُه المرتعشة تغمض عيني "العمّ إبراهيم" وتحمل المذياع.. اقترب الصوتُ أكثر: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، وكأنه يسمع هاته الآيات لأوّل مرّة.. ترقرقت الدّموع في عينيه.. أسعفته فأجهش ببكاءٍ مرير صاخبٍ كطفل تائه فقَدَ أمّه في الزحام.. جلس بالقرب من الجثمان منكسرًا، يداه إلى رأسه؛ يلعنُ الدّنيا والأبناء والوحدة القاتلة.. ويعزم في قرارة نفسه عزمَ مَن خذلته الدنيا الخؤون أن يطردَ الطموح ويقتل الأحلام وأن يشرد الأماني.

مرّت الأيام الأولى لوفاة العمّ إبراهيم ثقيلة حزينة كئيبة دون أن يستطيع الغريبُ أن ينسى تفاصيل جسدِ الشيخ المنْهك الممدّد في العراء، وعينيه اللّتين كانتا تحدقان في السّماء وكأنّهما كانتا تستعجلان الرحيل.. وحتى الآيات كانت تتردّد صدًى في مسامعه، وذلك المشهد المريع يصرّ على أن يقضّ مضجعه، وأن يرافقه حتى في الأحلام.

ثمّ ها هي الأيّام تتوالى، وباتَ الغريب معتادًا، كلّما رجع من عمله عشيّة، على رهبة الصمت فوق عتبةِ بيت إبراهيم. وحلمه الغريب الذي جافاه مذْ لعن الدنيا، سرعان ما بدأ يتحرّش به. وعاد الشيخ الوقور ليعطيه كلّ ليلة

ذلك الصّندوق الغريب من غير مفتاح، فكأنّما كان يستفزه ليستأنف رحلةَ الأحلام ويعانق سكك الأماني.

وقد كان يوم سعده حينما عرض عليه أبناء المرحوم إبراهيم الإشرافَ على بيْع أرضهم لعدم استطاعتهم تولّي ذلك بأنفسهم، وقبلوا بعرضه شراءها منهم من غير تردّد لأنّها كانت أرضًا صخريّة صَلْدة مليئة بالشّوك، ولأنّهم كانوا يودّون التخلّص منها بكلّ وجه.

وحدَه كان يتقن فنّ قلع الأشواك.. يعرفها وتعرفه..

كانت رحلة "الغريب" مع أرضه الجديدة لا تقلّ تعبًا وكدًّا عن تلك التي مارس فيها طقوس الحياة، فكان كلّما اقتلع صخرة نبتت تحتها أخرى، وكلّما نزع حزمة شوْك، انبثقت تحتها أخرى، سيزيف في رحلته السرمدية مع صخرته، يحملها لأعلى الجبل، حتى إذا ما شارف الوصول؛ سقطت فاضطرّ إلى إعادة الكرّة.

لم يتركْ له الكلل وقتًا يؤوب فيه إلى روحه، يطعمها حروفه ويسقيها قصصه وقصائده، ويستأنف معها مشوار التّعلم والكتابة.. سرقته منها رحلة استئصال الشّوك.. فلمّا اعتصرتها الوحدة، واشتاقت لصحبته التي كانت تلوّن حياتها بالبهجة؛ باتت ترافقه.. تحزمُ معه أكوام الشوك، وتحفّزه إذا ما تعب، وتمسح عن جبينه العرق، وتضغط عليه كي يرتاح بين الفينة

والأخرى لتطعمه وتسقيه.. فيشبع أنوثتها بكلمات الشّكر، ويغدق عليها بعبارات الامتنان.

وذاك الحلم الذي كان يراوده قد كفّ عن زيارته، مذْ حصل على الأرض..

رفع معْوَله ذاتَ هجيرة ليهوي به على الأرض، وصفيّة بالقرب منه. منتشيةً كانت تتابع حركاته في فخْر.. حمامة فوق سطح البيت تشجن، ووريقات السّدر ساكنة، وشمسٌ تلفحُ الصّخر والتربة وشجيرات العوسج ووجه صفية المرمري.. رفع المِعْول.. شردت عيناه في الخواء.. جحظت عينا صفية.. ارتعدت.. قاوم ثقل المعْول بين يديه.. قامت مفزوعة صفية.. غالبَه المعول.. هُرِعت إليه صفية.. لكنّ جسده سبق معوله إلى الأرض.. وضعت رأسه فوق فخدها.. ظنّت أنه التّعب.. قبض على كفّها بقوّة وابتسم.. لم يسعفه الكلامُ فنظر في عينيها نظراتٍ ملؤها الرضا والامتنان.. رفع سبّابته وتلفّظ بالشهادة، وحلّقت روحه تودّع روحها وأرضَ الصّخر والشّوك، وتعد صفية وجسدَه بلقاءٍ قريب عند رحيم رحمان.

-٩-

يوميّات رَحى عصريّة..

نفسُ دقّات جرس المنبّه بنفس الساعة كما كلّ يوم قبيل الفجر؛ توقظها، فتقفز من السرير على وقع سيمفونيّتها الرتيبة الكئيبة لتكمل فتح عينيها بالحمّام أو بالمطبخ وهي تهيّئ الفطور. وبذات الوقت تكمل ترتيبات غداء اليوم.. لا وقت لها لتتثاءب، ولا لأنْ تتمطّى على الفراش، فكلّ ثانية محسوبة، وكلّ حركة زائدة تُنهب من ثواني صبْحها.. بالكاد تتمتم بذكر الاستيقاظ وتنتصبُ قائمةً للدوران مع رحى يومها.. تتوضأ وتصلي ركعتين خفيفتين وتنطّ للمطبخ.. تشعل موقدًا لإناء اللبن وآخر لترشيح القهوة وآخر لآنيةِ الضغط؛ حيث اللّحم والخضر وآخر لسلق البيض وآخر لشيّ الفلفل الأخضر.. تمتدّ يداها لاستخدام مشواة الخبز و"المايكرو ويف" لتَسْخين الفطائر.. تخرج علبَ الزبدة والجبن والمربّى والزيتون الأسود والزّيت.. تعلم ألّا أحد ستمتدّ يداه للزيت والزيتون، لكن غيابهما عن المائدة سيجْعلان طاقم العلب غيرَ مكتمل، وسيتغيّب اللون البرتقالي واللون الأخضر- ألوان أغطية العلب- عن مائدة الإفطار.. تبْهجها الألوان.. تحبّ الأناقة في كلّ شيء.. تضعها فوق الطاولة الممدّدة بين المجمد والثلاجة.. تُقَلِّب الفلفل.. تخرج السّكاكين والملاعق

والصحون والفناجين والمناديل الورقيّة من الدولاب.. تتذكّر المواصلات والظلام وعراكها اليومي معه.. لا تدري إن كان هذا اليوم سيقبل إيصالها إلى حيث سيارات الأجرة الكبيرة؟ تراءت لها تلك الطريق المتآكلة المؤدّية إلى مقرّ عملها بضاحية المدينة.. ما زال قلبُها يخفق خوفًا كلّما تذكّرت تلك الحادثة التي نجاهم الله منها بأعجوبة؛ حينما طارت عجلة سيارة الأستاذ الذي تكلّف بإيصال الأساتذة على بعد عشرات الأمتار في ذلك المرتفع، في حين واصلت السيارة اصطكاكها بالأرض تحت وقع الشرارات.. كان انقلابهم في الوادي وشيكًا، لكن الله حفظهم.. تنهّدت.. لو كان بوسعها أن تستقيل لما تردّدت.. الديون وأقساط المنزل والسيارة وإعانة والديها، ثمّ هي لا تضمن استمرارَ العيش معه، فنُذُرُ الفراق باتتْ وشيكة، وأحلامها في تغيره ودّعتها منذ حين.. كادَ اللبن يسترق لحظةَ انشغالها ليفيض لولا استدارتها المفاجئة لمباغتته.. الحمدُ لله أنها استدارت في الوقت المناسب وإلّا لزادها همّ مسح الموقد من آثار الحليب المستعصية.. تضع الحليب في "التّرموستا".. تقلّب الفلفل.. تملأ آنية بالماء وتضعها فوق الموقد.. تضيف قليلًا من الملح وقليلًا من الزيت كي لا تلتصق المعجنات.. تنتظر غليان الماء قبل إضافة ذاك النّوع المحبّب إلى أطفالها.. تبشُرُ الجزر وتفرمُه بشكلٍ طولي.. تخرج حفنة ذرةٍ وحفنة جلبان من المجمد.. صفير رشاحة البنّ يذكّرها باستوائه.. تطفئ الموقد وتصبّ القهوة في ترموستا أخرى أصغر من الأولى.. تقلّب الفلفل

مرّة أخرى.. صفير آنية الضغط يذكرها بخفض حرارة الموقد.. تخفضها وتضيف المعجنات والجلبان للماء المغلي.. صفائح مشواة الخبز قد قفزت.. تستبدل الخبز بخبز آخر.. يؤذن المؤذّن لصلاة الفجر.. صوتُه الندي المنبعث من تلك الصومعة المحاذية لشبّاك البهو يحملُها لعالم النقاء.. يجعل روحها ترحل عن هذا العالم المادي المتجبذر؛ لتعانق الصفاء ولتتخلَّص من أثقال الطين والهموم محلقة في فضاء الوجد والرضا واليقين.. تردّد معه النداء وهي تملأ الغسالة بالملابس.. اليوم دورُ الأقمشة البيضاء.. تدير الغسالة وتستدير إلى غرفة النّوم توقظ زوجها قبل أن توقظ الأطفال.. تمرّ على المرآة في طريقها إليه، لا تريده رغمَ كلّ شيء أن تقع عيناه منها على قبيح.. تتفقّد شَعْرها ووجهَها وقميص نومها.. تمرّر يدها على تلك الخصلات المتمردّة تذكرها بالنّظام.. توقظه.. تربتُ على شعره وخدّه بدلال.. يفتح نصفَ عين ويرمي بيدِها خارج دائرة وجهِه.. هكذا هو لا يدلّل ولا يقبل الدّلال.. تتذكر حركة شبيهةً بهاته حينما أنهكتها الوحْدة ذات ليلة فخرجت من غرفة نومها إلى البهْو حيث يتابع- ممدّدًا- فيلمًا أمريكيًّا.. اضطر لتغيير القناة لرؤياها.. جلستْ عند نهاية رجليه تريد مشاركته غطاءه لكنّه ركلَها وهو ينهرها: "ألقلّة الأماكن في كلّ البيت، لمَ تحبّين الزّحام؟" تتذكّر كم بكتْ ليلتها، وكم كانت مضطرّة في الصباح أن تجفّف دمعها وأن تفتعل أنّ كلّ شيء- رغم كلّ شيء- على ما يُرام.. تتنهّد.. تتذكّر الفلفل على الموقد.. تهرع لتقلّبه.. تخرج

البيض لتقشّره.. تغطسه في الماء البارد.. استوى الفلفل والمعجنات أيضًا.. صارت السّلطة جاهزة ستضيف لها الجزر والزبيب والذرة والفطر والصّلصة المخللة حينما تعود.. تطفئ المواقد وترجع لإيقاظ زوجها مرّة أخرى.. تصلّي الرّغيبة.. تُهْرع لإخراج الفطائر قبل أن تتصلّد.. تلفّها في منديل.. تسمع تثاؤبَه من المطبخ واصطدام رجله بحافة السرير وهو يتمدّد.. تقشر البيض وتضعه فوق المائدة.. تقشّر الفلفل وتقطعه وحبتي طماطم، وتضع الكلّ فوق النار وتضيفُ الثّوم والزّيت والملح والتوابل.. تقلّبها فوق النار إلى حين استوائها.. تُهْرع لتخبره أن تكبيرة الإحرام قد فاتتْه مرّة أخرى وتستحثّه للّحاق بصلاة الجماعة فقد أقيمت الصلاة.. تسمع صلصلةَ مفاتيحه خارجًا للمسجد وهي ساجدةٌ تصلي الفريضة.. تسأل الله أنْ يفرّج كربَها وأنْ يهدي زوجها، وأنْ يجعل قلبه يحنّ عليها وأن يقرّ عينها بأطفالها.. تختلج حروفها بعبراتها.. تطيل السجود.. تسأله أن يحسّن أحوالَها وأن يمدّها بعوْنه سبحانه، وأن يفرغ عليها صبرًا.. تتملّق له بحالها، وتتوسّل له باسْمه الجبّار أن يجبر كسرها، وباسمه الرزاق أن يرزقها من حيث لا تحتسب، وأن يقضي عنها دين الدنيا والآخرة، وباسمه تعالى الرّحيم أن يرحم ضعفَها وقلّة حيلتها وهوانها على زوجها.. تختم دعاءها بالتوسّل له سبحانه أن يكتب لها الانتقال قربَ بيتها وأولادها، وأن يكفيَها شرّ الطرقات.. كادت ترفعُ رأسَها، لكنّ شيئًا ملحًّا كان يجعلها تستمرّ في الدعاء.. سيولُ دمعها قد بلّلت السّجاد.. سألت

الله بحرقة إن كان خيرُها في مواصلة العيش معه أن يهديه وأن يقرّ عينه بها وعينها به، وإن كان سبحانه يعلم أنّ خيرَها في الفراق، أنْ يقدّره لها وييسره لها وأن يرضيها بقضائه.

تختمُ صلاتها بالتّسبيح، وتكمل أذكار الصباح وهي تخرج ملابسها من الدّولاب.. تلبس على عجل.. توقظ أطفالها.. تقرأ على ابنتها الكبرى بعض التّوصيات.. توصيها بأخواتها خيرًا.. تطفئ آخر موقد مشغل على الطّنجرة.. تضع الأواني بالغسالة ليلحقوا برفاقهم المنتظرين منذ وجبة العَشاء.. ليس لها رغبة في الطعام وليس لديها وقت كذلك.. لن تفطر كما كلّ يوم.. تخرج الخبز من المجمّد للغداء.. تنتظر عودته من المسجد ليقلّها.. صوت تثاؤبه يُسمَع من وراء الباب.. يمرّ بالقرب منها خامدًا غير آبهٍ بوجودها.. عيناه موارتبتان وخطاه بالكاد يجرّها قاصدًا غرفة النوم. تسمع ارتطامه على الفراش فتفهمُ أنّه لا يريد إيصالها، وأنّ قلبه لم يحن.. لكنّها على كلّ حال ستسأله ذلك علّه يشفق لحالها.. تعلم أنّه سيشنّف مسامعَها بذلك الكلام التي باتتْ مُعتادة عليه من ضرورة اعتمادها على نفسها، ومن أنّه سئم من لعب دور سائقِ الهانم، ومن أنّها تحرمه ألذ أوقات نومه.

لا تدري إن كانت ستصمتُ كما كانت تفعل، وتترك خناجر كلامه تمزّق أحشاءها، وتغرق في الدّموع، أم أنّها ستردّ عليه، كما أصبح يحلو لها، بما يجعله

يخجل من نفسه ومن رجولةٍ تأبى الحرص على تلك الأمانة المودعة عندها.. ومن شهامةٍ تترك امرأة شابّة تخرج للعمل قبل تغريد العصافير، وبأنّها سئمت من مناكداته ومن لا مبالاته بها، وبأن حال الخادمات أصبح خيرًا من حالها؛ فهنّ على الأقلّ يتقاضين أجرًا مقابل عنائهن، أمّا هي فمضطرّة للسّهرعلى الكلذ في هذا البيت من غير حتّى كلمة شكر أو ثناء، ومضطرّة أيضًا أن تتحمّل هواجس الخروج في الظلام، وأن تسلم له راتبَها مرغمة نهاية كلّ شهر كما تُدفع الجبايات الظالمة، ومن غير أن يكونَ لها الحقّ في أن تتصرّف- ولو في جزء بسيط منه- لتقتني ذاك الذي تعشق النّساء عادة أن تقتنيه.. أن تتصدّق منه، أو تهدي منه، أو تدّخر منه.

كانت تعلم أنّها كلّما فاتحته في شأن راتبها الذي يستحوذ عليه كلّ شهر بغير رضاها، أو كلّما تكلّمت في سيرة احتياجها لمبلغ مال تصرفه على نفسها؛ فقَدَ أعصابه بل إنسانيّته، ودفعه كلامها إلى ارتكاب الحماقات.. لم يعدْ يهمّها.. حتى صوتها الذي بدأ يعلو عليه لم يعدْ يهمّها.. نضجت بما يكفيها للمطالبة بحقّها.. إلى متى ستظلّ خانعة؟ إلى متى ستظل تبتلع الأشواك؟!

ثارتْ براكين الغضب داخلها.. استجمعتْ قواها وقرّرت المواجهة.. دخلت الغرفة ليشنّف آذانها بصوتٍ شخيره.. غطّ في نومٍ عميق.. لا تدري إن كان فعلًا اسْتفاق حينما أيقظته، أم أنّه أكمل نومه في الصلاة.

خرجتْ من الغرفة ودمُها الفائر فيها يودّ أن يطفح وينسكب على قميص رجولتِه الممزَّق، وأن يقيم سرادقات عزاءٍ في زوج لا يجمعها به سوى الوفاء، وهي التي كانت قبل الزواج تحلم بحياةٍ ملؤها الحبّ والهناء، وكان كلّ حلمها أن تسكن زوجها المستقبلي سويداء قلبها، وأن تكون له الحضن والسّكن. كان يتفنّن في كلّ مرّة في قتل كلّ ذرة احترام في خلاياها، وكلّ رغبةٍ في الاستمرار.. لم تدْرِ إن كان يجب عليها البكاء أو العويل أو كتابة قصائد الندبة و الرثاء.

وهي خارجةٌ سمعت وشوشة.. لم تصدّق سمعها.. استدارت.. لم يكن بالممرّ سوى حاملة الرّسائل والمفاتيح المعلقة بالجدار قرب مخرج البيت.. أصاخت فإذا بمفاتيح السيارة تهمسُ في أذنيها حلًّا لمشكلتها اليومية.

بعد الزّوال، حينما عادت أخبرته أنها قد قرّرت إنهاء هذه المهزلة.. وأنّها ستبدأ دروس السّياقة في أقرب فرصة.

استغنتْ عنه في آخر حاجةٍ كانت مضطرّة فيها إليه.

يومَها، قرّرت أن ترتب تلك الفوضى العارمة التي اكتسحت أعماقها من مدّة وتراكم عليها الغبار، وأن تستأنفَ التّخطيط لنفضِ أعماقها من بقاياه، وأن تشرع تلك الأبواب الموصَدة حتى يتسنّى لها تصفح هزائمه بعد كلّ هذه الأعوام، وقراءة خيبته وفشله في تطويعها وكسرها. وترقب عينيه الحائرتين وهُما يتتبّعان حقائب رحيلها المملوءة بكلّ أشيائها الصغيرة الجميلة، تعبر بها في صمتٍ وثقة، وتتحاشى- خلال الرحيل- كلّ تلك الطّرقات التي تعجّ به.

-١٠-

اعترافاتٌ متأخّرة..

اليومَ فقط قرّرت أن أمارس طقوسَ البوح، وأنْ أستعير حرفًا من صدق، وأنْ أشي بذلك الذي أجهدت نفسي عمرًا كي لا ينكشف.

ربّما هو الكبر، وربّما هو العناد.. وربّما هو تسلط ذكورة تأبى لنفسها التّنازل وتمنع نفسها الاعتراف.

أعترف..

يومَها،كانت الغرفةُ باردة، موغلة في الصمت، وذلك الضوء الخافت المنْبعث من شاشة الحاسوب جعل اللّون البرتقالي للستائر الذي كانت تضجّ به الغرفة من قبل؛ باهتًا ممتقعًا، يتسوّل البهجة ويستجدي الحياة.

وكنتِ- كما الغرفة- شاحبة مهزولة كمحتضر يائس من الحياة.. كنت أرقبُك في صمت، وأنت قابعة في زاوية الغرفة تقلّبين صفحات الحاسوب ملتحّفة بغطائك وأحزانك التي ما استهواني يومًا أن أفكّ حصارها، وعيناك السّاحرتان اللّتان أسقطتاني أوّل لقاء بيننا في عوالمك الدافئة الرقيقة؛ أصبحت غائرة ذابلة تجرّ أغلال السنين ونوائب عمرك الحزين.. فقرّرت

اقتحامَ صمتك ووحدتِك، وسوّلت لي نفسي التفَكّه بطقوس نحيبك، ومراسيم انْهيارك، ومضيتُ أُحْبُكُ خطّتي كي أمرغ أنفك في ائتمارك بذكورتي وفحولتي. يومها، كنتِ تنتفضين بين يدي، وصوتُك المنكسر المتهدج المنبعث من رحلةٍ سحيقة؛ يسألني الرحمة بأضلعك التي نحتت فيها أعاصير الصدمات المتعاقبة، وعشّشت فيها خفافيش الاكتئاب.. كنت أعلم أنّك- كما دومًا- ستمارسين عادتك في الاغتسال بدموعك الحرّى دون أن تلجئيني لمسح وجنتيك الذابلتين، ولا لأنْ أتلوَ على مسامعك تراتيل الاعتذار وقواميس البوْح الجميل.. وأنك ستتوسّدين النجوم، وستحلبين القمر، وستجعلين- كما دومًا- كلّ الأفلاك تشهد أنّ قطار المسافات البعيدة قد آنَ له أن يتوقف.. وكنت على يقين أنّك- كما دومًا- ستتوهين في زقاق فؤادك وستتقاذفك سكك الشّوق إلي؛ فتعودين حتمًا إلي. وكطفلة تائهة لمحت أمّها سترتمين بين أحضاني.. سأبعد رأسَك عني، وسأُخجل توسّلاتك.. ستلاحقينني كما تلاحق القطا أسرابَها، أوْ كما يتبع هرٌّ وليدٌ أمَّه.. وسأصعد كلّ الأدراج.. وسأعلو كلّ الأبراج، وسأجعل لحن نحيبك يتردّد صدى في سراديب صوتك الأبكم.. وحينما ستنهارين، سأجدُ لك ألفَ حكايةٍ وحكاية لأجعلك تركعين وتخضعين.. وسأجد لنفسي ألفَ عذرٍ وعذر لأمارسَ طقوس ذكورتي وفحولتي.

وستبْكين.. وستنتفِضين.. وستعترفين ألّا منجى لكِ منّي إلّا إلي.. وسأوصد دونَ أحلامك الصّغيرة أبوابي، وسأحتفي- كما العادة- بتباشير النصر وسأقيم- كما العادة- مهرجانات النّشوة على طلَلِكِ المتهشّم بمعاولي.

لكنّك هذه المرّة لم تفعلي..

لم تمرّغي أنفك القرمزي في صدري، ولم تبلّليني بدموعك الحرّى، ولم ترمقيني بنظراتك الطفوليّة المنكسرة.. لم تلوذي بي، ولم تنكسري بين يدي، ولم تهبي لي فرصة تمزيق دفاترِ ولَهك وتشريد حروف بوحك الحزين.. وجعلك تتْلين على مسامعي فصول البيعة ودساتير الولاء.

يومَها، لم أعلم أنّ انفجارًا قويًّا سيحدث، وسيجعل تلك الروح التي أبت دونَ روحي المساكن؛ يسكنها جنيّ الثورة، ويتلبّس بها مارد التحدي فأرقبها في صمت، يداي إلى عنقي والحيرة تلجمني، وهي تنساب من بين حناياي ومن تفاصيل رموشي ومن بين أناملي، دون أن أستطيع لملمة طيفها.. وأنّ العاصفة ستقتلعُ ذلك العشّ الذي شيّدته يومًا على فوهة بركان خامد.

لم أكنْ حينها أعلم كيف تُقرأ العيون.. أو ربّما لم أعتدْ على قراءتها ولا على كيف أفكّ شيفرة عباراتِ عوّدتني على سيولها، ولم يدُرْ بخلدي للحظة أنّها كانت تتوسّل إليّ لأنقذها من روحي المتشظّية، ومن سكاكيني التي لم تفتأ

تمزّق أحشاءها.. أن أنقذ صرحي من انهيارٍ بات وشيكًا.. لم أعلم أنك لم تكوني تمْزحين، أو ربما فهمت أنّ الأمر جد، وأنّ اللهجة ليست كما اللّهجة، وأنّ سطور النهاية باتت يكتبها حرفٌ مِن كبْر وتجبّر وخذلان.. لكنّ شيئًا ما كان يمنعني التدخّل وأنا أسمع صفير قطار المسافات البعيدة وهو يحطّ برصيفنا.. شيء ما كان يمنعني الحركة، وأنا أرى ذلك الصرح ذا الثمانية عشر خريفًا ينهار فوق شفتي ومن بين يدي.

كان بإمكاني أن أمسحَ عن عينيك الجميلتين الذابلتين غشاوةَ الهمّ المزمن الذي كنتُ سببًا فيه، وأن أقوم- في لحظة- بكلّ تلك الأشياء الصغيرة الجميلة التي كنت أرفضُ فعلَها من قبل.. وأن أثبت لك أنّني رجل المواقف الصّعبة، وبأنّني لن أخذلك هذه المرّة.. أن أضمّك في صدق إلى صدري، وأنْ أستنشق عطرَ أنفاسك كي يستفيق قلبي المخمور.. أضع أصبعي على شفتيْك كي لا تتكلّمي، وأنظر في عينيك، فقط في عينيك ليحملني سحرُهما إلى سماء البوْح دون أن تبوحي.. فكلّ ما كنت ستقولينه كانت دفاتري تعجّ به.. أعبرُ على متْن دموعك إلى عوالم تضحياتك وقارب تفانيك المجهد في أمواجي العاتية.. فأشدّ على يديك، وأذكّرك بأنّ رحلة العتمة قصيرة زائلة، وأنّ الصّبح قارَبَ على الانبلاج.. وأعدك هذه المرّة- صدقًا- بالغدِ الجميل، أضخّ في شراييك دماءً جديدة لتستأنف عزفَها لشراييني، وأحمل عنك كلّ

تلك الأثقال التي كان ينوء بها جيدُك النحيل، فتشرق شمسك من جديد، ويعبق وَردُك من جديد.

أعترفُ أنّ ذاك الورد في وجنتيْك كنت مَن امْتصّ رحيقه، وذاك النور في عينيك الحالمتين كنتُ مَن أخمد بريقَه، ولهيب الشوق في شراينك كنت من أهمدَ حريقه.. وذلك اللّحن الشجيّ الذي كنت تعزفينه لي؛ كنت مَن قطع أوتارَه، وكسر موازينَه، ورمّل قوافيه.

كان بإمكاني..

لكنّني لم أفعل..

أعترف..

أنا رجلٌ يا سيّدتي، التّنازلُ في قواميسي ضعْف، والاعتراف استلاب، ووعدي لك بالغدِ الجميل يعني أن أوقّع على أنّ أمسَك معي كان كئيبًا حزينًا.. أنا رجلٌ لي مبدأ في الحياة، التّدليل عندي من سقْطِ المتاع، وعبارات الامتنان سفْسَطة، والحبّ مجرّد طقوس بدعة. لكنك تصرّين على تغيير مبادئي.

أنا رجلٌ أخشى الأماكن الضّيقة، وترعبني الدّهاليز، فكيف تريدينني أن أعيشَ بين زوايا قلبك؟

أنا يا سيّدتي أضحّي بشملي إن رأيته ينتثر ويندحر، ولا أضحّي بذرّةِ أَنَفَة و"إيبسيلون" أنانية.. أنا رجلٌ أيتّم بالحياة أبنائي، وأرمّل نسائي، ولا أرْضى بشعْرةٍ تُلمَس من كبريائي.

أنا يا سيّدتي رجلٌ لي فلسفة في الحياة، قد أنسخ مفاتيح قلبي، قد أطبع نسخة جديدة من أوراق زواجي، لكنّني أنا كما أنا ولا أسمح بطباعة نسخة ثانية منّي بتفاصيل جديدة.. فكلّ حقوق الطبع عندي محفوظة.

أنا يا سيّدتي أحبّ البساطة، وبكلّ بساطة تعوّدت على هجرتك إليّ كلما طالَ الحصار، فقرّرت أن أشدّد حصاري، وصمّمت على أنك رغم كلّ شيء ستعودين، وستُقبِّلين الأرضَ تحت رجلي، وسأجعلك ترجعين صاغرةً خانعة خاضعة لكلّ شروطي. وبسرعة أنشأت دستوري الجديد، ودوّنت فصوله، وامتلَكَني جنيّ النّشوة وأنا أرمقك تطلبين الصفح والمغفرة والعودة للوطن، وتقبَلين بكلّ قوانين لعبتي.. فلمّا تأخّرت عودتك، وتيقنتُ أنّ كلّ دروب الإياب باتت مُحاصرة، وأنّ كلّ تلك الأبواب الموارِبة أصبحتْ مغلقة؛ غيّرت الخطّة فقط لأنّ كلّ مَن حولي علموا بحقائب هجرتِك، وقطعي أشواطًا في تأسيس دستوري الجديد، فبات تراجعي مستحيلًا؛ لأنّ العودة في قاموسي تعني التنازل، وأنا رجلٌ يا سيّدتي يمقت التّنازل. اخترتُ لنفسي دونَ عشّك الأعشاش لأعفي نفسي من الاعتراف لأنّها لم تعتدْ على الاعتراف.. ومضيت؛ أتخيّر لنفسي البدايات السعيدة وأرسمُ لنفسي مملكةً

لست أنت أميرتها.. ربّما سولت لي نفسي إشعال لهيبِ غيرتك وأنا أنسجُ قربك أحلامي، وأروي لك قصّة لن تكوني بطلتها، وأقنعك أنّه لا شيبات الرّأس ولا طول عشرة ولا تضحيات ولا بنين ولا بنات؛ ستُلزم رجلًا بالوفاء.. أستفزّ مشاعرك الطفوليّة، وأمنع عنك الماء والهواء كي تعودي..

لكنّك لم تعودي..

لم يخطرْ ببالي أنّني كنت أطردُك وأفرض عليك النّزوح وأساعدك في اتّخاذ قرارك النهائي.. لم أفهمْ أنّني مَن كنت أكتب دواوين النهاية بقلم الرّعونة ومداد الطّيش والنزق.. لم أفهم- إلّا بعدما انتهت فصول المسرحية- أنّني كنت ألعب دور ريطا الشّمطاء؛ تلك المرأة التي كانت تغزل غزلها وتفتلُه محكمًا، حتى إذا ما استوى وصار مكتملًا؛ نفضتْه ونفشتْه، وجعلته من بعد قوة أنكاثًا!

نفشتُ عشي، ونقضتُ شملي، ويتّمت بالحياة أولادي، وقطعت آخر خيط بيننا..

كنت أذبحُك مِن الوريد إلى الوريد، وأقطع شراييناك..

نسيتُ أنّني كنت يومًا نبضَ وريدك.. أنّني كنت معجونًا بشراييناك أو هكذا خيّل إلي، وسوّلت لي نفسي العنيدة.

أعترف..

كنتُ أقطعني.. كنتُ أذبحني..

لكنّني مضيت.

-١١-

رحلةُ اليقين

صوتٌ نديّ، وبصيصُ هلال لا نجمَ حوله، وريحُ الصَّبا تداعب ستائر لشباك، وقطرات دمع متلألئة في مَحْجري، وحمامة فوق التفاحة المتدلية أغصانها على المشرفية أرقت، فقامت تذكر وتشجن، وعشّ تحتها يزدان بيضا، وضوء خافت في ذلك الليل البهيم ينبعث من شقوق باب غرفة الأطفال حيث لا أطفال.. ودولاب، وملابس قطنية صغيرة، ورسوم لوّنت الجدرانَ لتشهد على أنّي ما قصّرت وما فرّطت وما توانيت، فهيأتها لتحتفي بهم، وتحتضن منهم الصّبايا والصبيان.. لكنّها كانت فارغة منهم كما فرغ منهم رحمي.

صوتك كان ذاك المساء شجيًّا نديًّا سارجًا في عبق السكينة يستفزني.. كان قدْ بلغ بي الحزن مَداه، وضجيج في أعماقي يمنعني السكون.. أبكي كأني ما بكيتُ ولا سأبكي.. ونغنغة أسمعها ولا أسمعها تحملها لي الجلبة البعيدة.. وصراخ صبي.. لا هي صبية أو ربّما صبي، يطاردني فأبكي، ولا شيء يكبح كلمات الطبيب المتشظّية في أرجاء الغرفة.. يصرخ الوليد.. ينساب صوتك الأسيف.. تُنوِّح الحمامة.. أسمع شجنك قائمًا تدعو موْلاك.. يحمل لي سكون تلك الليلة الظلماء همساتك: (اللّهم ارزقني الذرية الصّالحة كما رزقت على الكبر سارة وزكريا).. يعلو نشيجي وأؤمّن.. يزدادُ صراخ الوليد.. تتقطّع

حروف الطبيب.. تتطاير في الخواء.. تنتشر حولي.. يعلو نحيبي.. تتراقص أمامي في فضاء الغرفة المعتمة.. أياد وأرجلٌ قطنية تقتحم الباب، مستَنفَرة كانت.. غادرت دولاب غرفة الأطفال.. ملائكيّة كانت.. فتحت الباب وانتشرت تراقص الحروف.. تغالبها.. جولة لتلك ولهذه جولات.. يبلغ بهما الوهن مبلَغَه.. تقف الحمامة مرعوبة.. تشتَمُّ بيضَها.. تريد أن تتأكّد أنه ما زال تحتها.. تسقط الملابس القطنية أرضًا.. مهزومة كانت.. تلتفّ الحروف حول نفسها، تزمجر، تترنّح ثمّ تنفجر:

"معذرة، كلّ الفحوصات والتحليلات تؤكّد تخميني.. أنت عقيم سيدتي ولا فرصة لك في الإنجاب"

تتهدّج أنفاسي.. أنْحني لألتقط الأقمشة المهزومة لأشتمَّها.. لأحضنها.. فتغيضُ في شقوق الأرض أمام عيني.. يواريها غبار حملته ريح العشي، ولا تلتقط يداي سوى بضع شظايا حروف انفجرت منذ قليل. محرقة كانت، أوجعت أصابعي.. فسرى في صدري حريقُ انفعال.. يعلو نشيجي.. ألفّ ذراعي حولي.. أحتضنُ نفسي أحميها منّي.. نسمات الفجر تسللت تداعبُ جفني، وخصلات شعري الكستنائي المتساقطة فوق جبيني، تنقذني.. نجوت منّي وربّما ما نجوت.

تسلّلتَ للغرفة خشية أن توقظني.. وما نمت وما سهوت، وكيف تنام من نضبتْ سيول أمنياتها وغاضت أنوثتها في أخاديد بورٍ لا عشب يحفّها، ولبِستْ ثياب الحداد واعتدّت، ولا حدَّ لعِدَّتها.. ترتطم قدماك بي في الأرض

قرب السرير، فتنتبه لي وأنا جالسة كثكلى فقدت وليدها، كفّاي تضمّان وجهي، ورأسي وظهري يسندهما الجدار خلفي.. ما زلت أشمّ عبيرَ أنفاسك المُمَسَّكة حينما انحنيت قربي تضمّني وتُربِّتُ على رأسي، فحشرتُ وجهي في صدرك أسألك أن تخبئني بين ضلوعك.. أن تنقذني من براثنِ هواجسي.. أن تغفر عقمي، وأن تعذر ضعفي وقلّة حيلتي أمام قدر قضى أنْ أحرمك من سماع كلمة "بابا".

كان وجهك الملائكي متلألئًا، وكفّك الحانية ملساءَ بلا شقوق كراحة صبيّ.. رأيتك تهدهدني تهمس في أذني.. وكذاك الطفل الذي أبى أن يزدان به رحمي، نمتُ.

حينما استيقظتُ ذاك الصباح، خائرةً كانت قواي.. منهكة كنت حدّ الأنين.. وهذا شعري المنفوش، وعيناي المتورّمتان، وفؤادي المعتصر شهود على خروجي في هذه اللّحظة من معركة حلم.. رأيتك منتشيًا بزوجتك الجديدة بعد أن وضعت مولودها الثالث.. رأيتك تحضنها.. تقبّل جبينها وتلبسها تاجًا مرصّعًا.. وكنت أبكي.. رأيت لهفتك على وليدك.. فمسحتُ على بطني الأعجف.. لمحتك وأنت تحملُه بين ذراعيك وما رأيتني.. تؤذن في أذنه الغضّة.. تضعه برفق، ثمّ تلتفت لباقي أطفالك تستشيرهم في اسم المولود.. تمتمتُ: "رضا" وما سمعتني.. رأيتك تقبّل أصابعها وتنتشي.. فصرختُ ثمّ استيقظت.

لم تكنْ بقربي حينما صرخت.. صينية الفطور فوق المنضدة قرب رأسي، وورقة مكتوبٌ عليها: "صباحُ اليقين.. لم أشأ إيقاظَك.. فطورٌ شهيّ يا أميرتي". امتزجتِ ابتسامةُ الفرح بعبرات حزنٍ دفين.. إلى متى سأبقى أميرتك وأنا أهزم أحلامَك وأئدُ بسمتك على الشفاه!!؟ شردت أطارد طيفَ زوج خالتي الذي باع حبّها، وتنكّر لتضحياتها وللعشرة بينهما، وتركها أمام خياري الطلاق أو الموافقة على زواجه ممّن ستحقّق حلمه في الأبوة، فاختارت البقاء.. انتفضْتُ وأنا أرى صورة خالتي تبكي في حرقة وتنتحب وهي تروي لأمّي كيف كان يغسل الأواني بعد عودته مساء من عمله، ويهيئ الطعام لزوجتِه الحامل، وكيف كان ينزل من السيارة ويفتح لها الباب ويساعدها على الصعود وهي تتحرّك في دلال.. لم أكن أفهم حينَها لمَ كلّ هذا العويل.. وما الغرابة في زوجٍ يساعد زوجته ويدلّلها؟! لم أكنْ أفهم أنها تتحدّث عن ضرّتها.. وهي التي أفنت عمرَها تدلّله وتتجرّع حماقاته وتفاهاته في صمتٍ لأنّها لم تستطع أن تنجب له طفلًا يحمل اسمَه.. هجمتْ عليّ صورة زميلتي "ليلى" التي رمى عليها زوجها يمينَ الطّلاق في العيادة بمجرّد ما تلقّى خبر عقمها، ولم يصبر حتى يصل لبيته.

غمامةٌ سوداء اكتسحتْ سمائي.. أيّة أميرة أنا حينها؟ غرست وجهي في المخدّة وغرقت في نحيبٍ عقيم مثلي، ولم أنتبه إلّا على يدك تمسح رأسي وتهدّئ من روعي كَيَدِ أمّ تهدهدُ طفلها الذي استفاق مفزوعًا من حلم مزْعج. أرأيت؟ كلّ أحلامي "طفل"، وكلّ أمثلتي وتشبيهاتي "طفل"، فكيف بالله عليك أنجو مِن هذا الذي يعصر قلبي ويلهبُ أحشائي؟ كيف بالله عليك

ستسامح أرضًا بورًا لا ثمار منها تجنيها، ولا عشب يزيّنها؟ كيف ستظلّ تحبّ مَن سرقت منك أبوّتك، وحرمتك من سماع كلمة "أبي"؟

كانت ابتسامتُك الهادئة بلسمًا لجراحي، وهدوؤك يزرع في أحشائي اليقين، ونظراتك الصادقة تضمّد ندوبي..

- "الرّضا يا "أمان".. ما منعك إلّا ليعطيك.. أو تظنين أنه امتحانك وحدَك؟ إنّه امتحاني أنا أيضًا، فلْنُعِنْ بعضنا على اجتيازه بسلام. إنه الحكيم سبحانه، يمتحن مِن عباده مَن يحبّ. ادْعي الله بحرقة وتملقي له، واسألي الغني عن الزّوجة والولد أن يرزقنا الولدَ الصالح الذي تقرّ به أعيننا.. ماذا كنّا سنفعل لو رزقنا طفلًا لكنّه مسخ مشوّه؟ ماذا كنّا سنفعل لو رزقنا طفلًا مريضًا فنقضي عمرنا مع الأطباء والمستشفيات؟!!".

كانت تلك الحجبُ التي كادتْ تعمي عيني وتغرقني في ضعف الإنسان تنكشفُ مع كلّ حرف تنبس به شفتاك.. وأغرق في نورانيتك وصدقك.. رأيت يدَك تمتدّ لجيبك فتخرج منه مظروفًا أبيض يسبح في ستائر النور.. "استعدّي سنذهب بعد يومين للعمرة.. نريد تغيير الجوّ.."

ما أحوجَنا إلى الفرار إلى الله حينما تضيق بنا السّبل.. ما أحوجنا لحرارة الرّجاء ولبرْد اليقين تضخّ في عروقنا دماءً جديدة كي نستأنف المسير.. لكمْ نحتاج لرحلة نورٍ تنداحُ فيها نسمُ الأنس بالله، تحفنا فيها الرحمة، ويدثّرنا كرم الله.

.. مرّت تسعة أشهر كأجْمل ما تكون الأيام، وتذكّرت زوج خالتي مع زوجته الولود، وأنت تمنعني الوقوف وتغضب حينما تأتي وتراني مجهدة بسبب أشغال البيت، فأبادر أراضيك، فتبتسم مازحًا: "لن أرحمك إن حصل لطفْلي شيء، هو وديعة في بطْنك فارفقي بالوديعة"، وأهيم منتشية وأنت تلاعب خصلاتِ شعْري وتهمس في أذني: "إن كانت صبية فأريدها في جَمال عينيك وطيبة قلبك وجَلَد أبيها.. لا أريدها بكّاءة مثلك.. وإن كان ذكرًا فرجلٌ تفخر النّخوة به، ويغار من حكمته أحكمُ الرّجال.." كنت أستمع إليك كطفلةٍ في حجر جدّتها تروي لها الحكايات، وكم مرّة نمت على كتفيك وأنت تهامسني فما أستفيق إلّا ويدُك قد احمرّت وتنمّلت وأنت تخشى إن حرّكتها أنْ أفيق.

وجاءت بعد عطر الأحلام "ريم"؛ تملأ البيت فرحة، وتؤنس وحدتنا. وذاك الحلم الذي رأيتك فيه ملهوفًا على وليدك قد تحقّق، وكنت أنا البطلة. وها هي ذي "ريم" تنمو بيننا كزهرةٍ بريّة تنثر عبقَها حولنا، والغرفة التي كنتَ تنسمها بصوتك الشّجي كلّ ليلة؛ ها هي ذي تدثّرها بحجب النور المرصّعة بالرّضا واليقين والشّكر.

ثمّ ها هي ذي تمرّ السّنون ويمضي من ربيع "ريم" ستّ سنوات، وخلا رحمي مرّة أخرى من البنين والبنات.. فطمع القلب المتعلّق بمولاه في مزيدِ فضله سبحانه.. ثمّ ها نحن نتّخذ الأسباب ونلجأ- بعد منّة الله- إلى فنون الطبّ نبحث عن وليد أو صبيّة نؤاخي به "ريم" التي صيرت كلّ دماها ودببتها إخوة لها.

ما أشبهَ اليوم بالأمس، وحروف متشظّية تزرع خناجرها في أحشائي، وتمزّق حناياي وتلجم لساني، تتطاير من بين شفتي الطبيبة الجالسة خلف المكتب أمامي:

- "انسي أمر الإنجاب، وانتبهي لحالك ولصحتك.. ورَمٌ بثديك أخشى أن يكون.. على كلّ حال ليس هذا وقتَ نفي أو إثبات.. نحتاج إلى فحوصات وتحليلات مكثّفة.. إن كان في بدايته فلا خوف بإذن الله..".

لم أسمعْ ما تبقّى من كلام..

نفسُ الخناجر التي كادت تمزّق حناياي ذات ألم منذ ستّ سنوات ها هي ذي تحاول الفتكَ بي.. ونفس ابتسامتك الرّاضية ولَمستك الحانية تملأ أحشائي بالصبر، وتذكّرني برحلتي مع اليقين.

لكمْ نحتاج في رحلة الحياة الحالكة إلى قناديلِ الأمل، وفتائلِ الرجاء؛ نطرد بها العتمة، وننير بها حلْكةَ لياليا المظلمة.. لكم نحتاج إلى تلك اليدِ الحانية التي تمسح عن عيوننا الدّموع، وتذكّرنا- كلّما استلبنا الضعف- أنّ لنا ربًّا يحْمينا، ويجبر كسرنا ويأوينا.

ها أنا ذي أراك تمسحُ عن عيني دموعي.. تضمّني.. تذكّرني أنّ حبّك لي لم يغيّره يومًا عقم، ولنْ يزعزعه مرض.. وأنّ رحلة اليقين ستبقى مستمرة ما استمرّت الحياة وعقبات الحياة.

إذا ما غبت يومًا، فسامحْ رحيلي، وسامحْ رحلتك معي في دروب الابتلاء فلعلّ الله يحبّك. ولا أقول لك إلّا ما علّمتني يومًا "إذا أحبّ الله قومًا

ابتلاهم". قد كان منك الرّضا؛ فأسأل الله أن يرضيك ويرضى عنك، وقد كان منك الصّبر فلك أجرُه بإذن الله، وقد كانت منك رحمة تدثرني بها تحميني بها من العَراء، أسأل الله الرّحيم الذي أودع فيك من رحمته، أن يتغمّدني وإياك بها.

إذا ما غبت عنكم يومًا، فأخبر "ريم" أنّني أحبّها، وأنّني ما اخترت حياة اليُتم لها، ولكنّه القضاء.. ضمّها إليك، وعلّمها كيف تسير في دروب الرّجاء كما علمتني.. ازرعْ فيها اليقين كما زرعتَه في أعماقي المجدبة؛ فصارتْ تتنفّس الرضا وتلهج بعبارات التسليم.

علّمها أنّ الحياة في أدقّ تفاصيلها؛ مكابدةٌ وكفاح وامتحان سرمديّ لا ينتهي إلّا بخروج الرّوح.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
تقديم القاصّ والكاتب والنّاقد الأستاذ (محمود توفيق حسين)	٩
لن يأتي..	١١
نكران	١٥
رصيفٌ بلا قطار..	٢٢
نكسة	٣٤
يومًا ما سيَعْلمن..	٤٦
وحدَه لا يدْري..	٥٥
بطلةٌ خارجَ فصول الرّواية	٦٠
أرضُ الشّوك	٦٦
يوميّات رَحى عصريّة..	٧٤
اعترافاتٌ متأخّرة..	٨١
رحلةُ اليقين	٨٨